العدد الخامس | السنة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم

المسلمون

مجلة إسلامية جامعة
تصدر مع غرة كل شهر عربي
سنتها عشرة أعداد

صاحب الامتياز
ورئيس التحرير
سعيد رمضان

الإدارة :
٣٢ شارع المنيل
بالروضة بالقاهرة
تليفون : ٢٤٤٥٥

الاشتراكات
ص
١٠٠ عن سنة كاملة
٦٠ عن نصف سنة
للطلاب وجنود الجيش
٨٠ عن سنة كاملة
٤٠ عن نصف سنة
٢٥ عن ثلاثة أعداد
يضاف إليها أجرة
البريد خارج القطر

رجب سنة ١٣٧٢ | مارس سنة ١٩٥٣



هذا القرآن

لفضيلة الأستاذ حسن الهضيبي

المرشد العام للاخوان المسلمين

« إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ »

ذهبت إلى الإسكندرية فى الأسبوع الماضى كى أسير فى جنازة شهداء البحرية الذين لم يموتوا فى قتال ، وإنما غرقت بهم السفينة فى جو لم تقو فيه على مغالبة الرياح ، وقد ذهب ضحية الحادث بضعة وخمسون رجلا من أوفى الناس لبلادهم . وكنت مهموماً محزوناً لهذا الحادث ، أفكر فيه وفى نتائجه القريبة والبعيدة ، ولما وصلت إلى حيث يبدأ المشيعون سيرهم ضاق صدرى وكدت أختنق ، وهى حالة تعترينى فى ساعات الحزن ، ولا أجد فى عينى دمعة واحدة تطفئها ، فإن دمعى غير حاضر ، وتشق علىّ مواقف الحزن التى لا أجد إلى التخفيف منها سبيلا . وقد ذكرت حينئذ الطائرة الحربية التى سقطت قبل أيام ، وتصورت شهداءها والخسائر التى حلت بنا ، واشتد بى ضيق الصدر لولا أن تذكرت قول الله تعالى « ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا : إنا لله وإنا إليه راجعون ، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون » فقرت نفسى

العدد الخامس

السنة الثانية

صاحب الامتياز
ورئيس التحرير
سعيد رمضان

الإدارة :
٣٢ شارع المنيل
بالروضة بالقاهرة
تليفون : ٢٤٤٥٥

بسم الله الرحمن الرحيم

المسلمون

مجلة إسلامية جامعة
تصدر مع غرة كل شهر عربي
سنتها عشرة أعداد

الاشتراكات
مـ
١٠٠ عن سنة كاملة
٦٠ عن نصف سنة
للطلاب وجنود الجيش
٨٠ عن سنة كاملة
٤٠ عن نصف سنة
٢٥ عن ثلاثة أعداد
يضاف اليها أجرة
البريد خارج القطر

رجب سنة ١٣٧٢

مارس سنة ١٩٥٣



هذا القرآن

لفضيلة الأستاذ حسن الهضيبي
المرشد العام للاخوان المسلمين

« إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ »

ذهبت إلى الإسكندرية فى الأسبوع الماضى كى أسير فى جنازة شهداء البحرية الذين لم يموتوا فى قتال، وإنما غرقت بهم السفينة فى جو لم تقو فيه على مغالبة الرياح، وقد ذهب ضحية الحادث بضعة وخمسون رجلا من أوفى الناس لبلادهم. وكنت مهموماً محزوناً لهذا الحادث، أفكر فيه وفى نتائجه القريبة والبعيدة، ولما وصلت إلى حيث يبدأ المشيعون سيرهم ضاق صدرى وكدت أختنق، وهى حالة تعترينى فى ساعات الحزن، ولا أجد فى عينى دمعة واحدة تطفئها، فإن دمعى غير حاضر، وتشق علىّ مواقف الحزن التى لا أجد إلى التخفيف منها سبيلا. وقد ذكرت حينئذ الطائرة الحربية التى سقطت قبل أيام، وتصورت شهداءها والخسائر التى حلت بنا، واشتد بى ضيق الصدر لولا أن تذكرت قول الله تعالى « ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا : إنا لله وإنا إليه راجعون، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون » فقرت نفسى

المضطربة ، وعلمت أنى استجبت للعاطفة أكثر مما ينبغى ، وأنى سهوت عن التفكر فى أن الأمور تجرى بقدر ، وأن لله فيما قدر حكمة هو بالغها وذكرت قول الرسول عليه الصلاة والسلام : «لايبلغ العبد حقيقة الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه أبدا ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه أبدا جفت الأقلام وطويت الصحف » .

ولكنى لم ألبث أن سمعت بنبأ تلك الطائرة التى أدت واجبها فى رحلة طويلة ، وفيما هى تقترب من نهاية الرحلة عائدة إلى القاهرة احترقت ، واحترق معها كل من كانوا فيها ، وذهبت هذه الأرواح إلى ربها ، وأنا أعلم أن فيها قوما كانوا لايلهيهم شىء عن ذكر الله . وعدت إلى تذكر الآية الكريمة والحديث الشريف وقلت جفت الأقلام وطويت الصحف .

وسبح فكرى إلى زلزال إيران حيث انشقت الأرض وانطبقت على قرية بأكملها فأهلكت أناسها وحيوانها وزروعها — وقلت إن لله فى ذلك حكمة هو بالغها ، وجفت الأقلام وطويت الصحف .

ووثب فكرى إلى ماكان من هياج البحر ، وطغيان مائه الذى سبب لانجلترا وهولندا كوارث ، فخرب البيوت ، وشتت سكان بعضها ، وأفنى بعضاً ، وأتلف الزرع والماشية ، وأفسد الأرض أن تصلح للزراعة فى بعض الجهات دهراً طويلا ، ثم قال أهل تلك البلاد إنهم بما قووا من سدود وما وضعوا من أكياس الرمل قد انتصروا على الطبيعة وتغلبوا عليها ، فارتد البحر عنهم ، وانخفضت أمواجه وعاد مهزوما .

اجتمعت هذه الحوادث فى ذهنى ، وساقتنى إلى التفكير فيها ، وفى غيرها ، فرأيت أن الإنسان الضعيف القوى ، الذليل المتمرد ، المسكين الجبار ، الأعمى البصير ، ينسى فى تصرفه ضعفه وذله واستكانته وعماه ، ولا يتذكر إلا قوته وتمرده وتجبره وبصره فينسى خالقه ويستطيل عليه ؛ بل يكفر بوجوده ويزعم أنه قادر على كل ما هداه عقله بتوفيق الله إليه ، وأنه يستطيع أن يتصرف فى هذا الكون تصرف من لايرد له قول أو فعل ، وأنه يستطيع أن يغالب الطبيعة ، ولايذكر الله إلا قليلا ، ويرتكب من المظالم ماتعينه حيلته عليه ، غير شاعر بأن الله جلت قدرته قد وضع لهذا الكون قوانين يجرى عليها ، وأن من هذه القوانين علاقة المرء بربه فى سره وإعلانه ، ونجواه وجهره وعلاقته بالناس أفراداً وجماعات ، فكما أن الشمس والقمر والنبات والحيوان والأرض وما فيها كلها تسير وفقا لقوانين ثابتة لاتتغير ، فكذلك الإنسان قد رسم الله له الطريق وهداه الصراط المستقيم هداية بيان وتعليم ، ولم يبق له إلا أن يهتدى بما هداه ويستعين الله فى ذلك ويسأله التوفيق .

ولكن الإنسان خرج على هذه القوانين ، فالله تعالى يذكره بين آن وآخر بقدرته وعظمته وجبروته لعله يتذكر أو يخشى . أنظر إلى قوله تعالى « حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون » .

ومن حكمته تعالى ورحمته بخلقه ألا ينزل العقاب بالناس إلا بعد أن ينذرهم ويرسل لهم الرسل ، ثم لا يعجل لهم بعد فيأخذهم بذنوبهم ، بل يملى لهم حتى يتوبوا أو يبقيهم على ما اجترحوا ليوم آخر « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » « ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى » .

وغضبه على عباده فى الدنيا وعقابه لهم ليس من الضرورى أن يكون فى صورة من الصور التى كانت تحصل للأمم السابقة من نحو ما جاء فى قوله تعالى « كذبت ثمود بطغواها إذ انبعث أشقاها فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها ولا يخاف عقباها » بل قد تكون من نوع ما جاء فى قوله تعالى « وفرعون ذى الأوتاد الذين طغوا فى البلاد فأكثروا فيها الفساد فصب عليهم ربك سوط عذاب إن ربك لبالمرصاد » وسوط العذاب قد يأخذ صوراً كثيرة كلها مما يحزن له القلب وتجزع النفس ويضطرب الفكر فتغشى الناس غواشى الحيرة والارتباك فى شئونهم ، وعدم الأمن على أنفسهم وأموالهم ، ومن خصائص هذه النكبات العامة أنها تأخذ الظالم والمظلوم والبر والفاجر والذين هم فى ضلال والذين هم على هدى وصدق الله العظيم : « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة » .



فإذا صح لنا أن نقول إن ما يقع لنا ولغيرنا من الكوارث والنكبات ليس إلا نذيراً من الله تعالى لعباده ، حتى يبصرهم بما هم فيه من خروج على سننه الكونية وشرائعه الإلهية ، وأنه إذا شعر الإنسان بقوته فليرجع إلى الله حتى تتضاءل هذه القوة فلا يضل ولا يطغى . وأن الله تعالى أغير على خلقه من أن يدعهم يظنون به الظنون ، وأن حياتهم وأعمالهم تجرى على حسابهم وحدهم كما تجرى عملية حساب واحد وواحد يساوى اثنين ، ففى بعض الأحيان لا يساوى الواحد عند الله شيئاً وأحياناً يساوى كثيراً والله تعالى هو الذى يمنح حتى يصبح الضعيف قوياً ويمنع حتى يصبح القوى ضعيفاً « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين » .

والرجعة إلى الله تقتضينا العمل بكتابه وسنة رسوله عملا لا نخشى فيه أحداً ولا نمالئ أحداً ، وهو العمل الوحيد الذى تزدهر به حياتنا ، ونذوق طعم السعادة ، ونأمن الكوارث ، وصدق الله العظيم « من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » .

قصص القرآن

آدم عليه السلام

عرض وتحليل للأستاذ البهى الخولى

عناصر تكوين الإنسان

* * *

« إذ قال ربك للملائكة : إنى خالق بشراً من طين ، فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين[1] » .

القرآن ونشأة الحياة فى الأرض :

تعرض القرآن الكريم لبدء الحياة فى هذه الأرض فقال سبحانه : « والله خلق كل دابة من ماء ؛ فمنهم من يمشى على بطنه ، ومنهم من يمشى على رجلين ، ومنهم من يمشى على أربع ، يخلق الله ما يشاء ، إن الله على كل شىء قدير[2] » .

وهذا الذى قرره القرآن منذ قرون وأجيال يقرره العلماء الآن ؛ إذ يقولون إن أول حيوان وجد فى هذه الأرض ، إنما وجد فى الماء فى صورة خلية ضئيلة جداً ، تحمل سر الحياة القابلة للنمو والتكاثر والتطور . . وبتكاثر هذه الخلية الضئيلة كثر ما يعيش فى الماء من الأحياء . . . وتطورت هذه الأحياء فصارت أنواعاً وأجناساً وفصائل . وظلت تعيش فى الماء ماشاء لها الله ، ثم بدأ بعضها يدرج منه إلى وجه الأرض ويعيش عليها . . وتأقلم ذلك الذى درج إلى سطح اليابس ، وتكاثر وتطور ؛ فكان منه ما نعرف من أنواع الحيوان ، وما لا نعرف مما انقرض نسله وغبر عهده .

ذلك ما يقرره القرآن ، ويقرره العلم عن بدء الحياة فى هذه الأرض ؛ وهو تقرير يدل على أن الأرض عرفت كثيراً من أنواع الأحياء المائية والبرية قبل أن تعرف هذا الإنسان الذى يسكنها الآن بما لا يحصيه إلا الله من الدهور . . فلما خلق الله سبحانه

---

(١) ص — ٧٤ (٢) النور — ٤٥

آدم كانت الأرض حافلة بأصناف النبات والطير والدواب ، ولم يأمره سبحانه بالهبوط إليها إلا بعد أن علمه أسماءها وخواصها وسر تذليلها والانتفاع بها ؛ وإليه الإشارة بقوله عز وجل : « وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين[1] » .

صلة آدم بمن سكنوا الأرض قبله :

وليس فى نصوص القرآن التى وردت عن نشأة الحياة فى هذه الأرض وتطورها نص قطعى يدل على أن الإنسان الحالى انحدر من سلالات تلك الأحياء القديمة وتطور حتى صار إلى ما هو عليه الآن ؛ وليس فى العلم كذلك نص يقينى يقرر ذلك . . وكل ما هنالك أن لدى علماء الجيولوجيا علما عن بقايا عظام قديمة لأمم سكنت هذه الأرض منذ عصور موغلة فى القدم تخالف عظام الآدميين الموجودين عليها الآن .. قال أستاذنا الشيخ عبد الوهاب النجار : « والجيولجيون يسمون الأمة التى كانت تسكن الأرض قبل هذا الجنس الآدمى مباشرة بالإنسان (النياندرتالى) وأن ذلك الجنس قد باد عن وجه الأرض — راجع مقاله بشأن هذا فى البلاغ المخصوص ١٥ مايو سنة ١٩٣٤ » اهـ

نظرية داروين وخلق آدم :

وقد رأى بعض الباحثين فى قصة آدم أن يناقشوا « نظرية داروين » التى تقول إن الإنسان أصله قرد ترقى بسبب عوامل مجهولة حتى صار إلى ما هو عليه الآن ، وليس أصله آدم كما تقول النصوص الدينية ... وردوا بأن تلك النظرية لم تزل موضع البحث ، ولم تبلغ مرتبة العلم اليقينى .

على أن ذلك مبحث لا يعود علينا بشىء من النفع فى دنيانا ولا فى آخرتنا .. وهذا كلام ربنا سبحانه يقول فيه إنه خلق الإنسان من طين ، ثم سواه ونفخ فيه من روحه وهو كلام فيه كل الكفاية لما نريد من خير الدنيا والآخرة . .

عناصر الطين فى الإنسان :

أما أنه خلقه من طين أو تراب ، فذلك ما يؤيده الواقع ، ويقره العلم ، وتثبته التحاليل الكيماوية . . .

(١) البقرة — ٣١

فلو أنك أخذت قبضة من تراب الأرض الخصبة ، وأجريت عليها عمليات التحليل الكيماوى لوجدتها تتركب من : « ستة عشر عنصراً » .

ولو أخذت قطعة من جسم الإنسان وأجريت عليها عمليات هذا التحليل لوجدتها كذلك تتركب من : « ستة عشر عنصراً » هى نفس العناصر التى تتركب منها تربة الأرض .

وهذه العناصر هى ما يأتى ، مرتبة بحسب نسبة وجودها فى جسم الإنسان : الأكسجين ٠٣ و ٦٣ ٪ — الكربون ٢٠,٢٠ ٪ — الإيدروجين ٩,٩٠ ٪ — النتروجين ٢,٥ ٪ — الكالسيوم ٢,٤٥ ٪ — الفسفور ١٠٠١ ٪ — الكلور ٠,١٦ ٪ الفلور ٠,١٤ ٪ — الكبريت ٠,١٤ ٪ — البوتاسيوم ٠,١١ ٪ — الصوديوم ٠,١٠ ٪ — المغنسيوم ٠,٠٧ ٪ — الحديد ٠,٠١ ٪

وآثار ضئيلة من كل من : اليود ، والسليكون ، والمنجنيز .

وتنتقل هذه العناصر من تربة الأرض إلى جسم الإنسان بما يتناوله المرء من الأطعمة والمأكولات .

والأطعمة إما نباتية أو حيوانية .

فالنباتية مؤلفة من العناصر التى ذكرناها ؛ فلو أنك أخذت كمية من القمح — مثلا — وحللتها كيائياً لوجدتها مؤلفة من العناصر المذكورة ؛ إذ النبات إنما يستمد غذاءه من تربة الأرض : أى من نفس هذه العناصر .

والأطعمة الحيوانية مؤلفة من العناصر التى تتألف منها الأطعمة النباتية ؛ إذ الحيوان يعتمد فى بناء جسمه على النبات .

وعندما يموت الإنسان والحيوان والنبات تبلى أجسامهم وتتحلل إلى عناصرها الأولى ، وتعود إلى الأرض . ! فتم دورة كاملة للعناصر المذكورة فى الكرة الأرضية .

وصدق الله العظيم : « منها خلقناكم ، وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى[1] » .

خصائص الطين فى الإنسان

روى أبو موسى الأشعرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن الله عز وجل خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض ، فجاء بنو آدم على قدر الأرض

(١) طه — ٥٥

لجاء منهم الأحمر والأسود وبين ذلك ، والسهل والحزن ، والطيب والخبيث » قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح .

فرسول الله صلى الله عليه وسلم يشير بهذا الكلام الدقيق العميق إلى أن طبيعة الطينة التى خلق منها المرء تضرب فى كيانه حتى تظهر فيما يعرف به من صفات حسنة أو رديئة .

ففى الأرض ماهو سهل منبسط تطيب النفس لرؤيته ، وتنشرح لمزاولة السير فى رحابه ، فمن كان فى طينته حظ من ذلك السهل سرت تلك الخصوصية إلى مزاجه النفسى ، وظهرت السهولة والسماحة فى خلقه وأسلوب معاملته .

ولسنا بصدد إيراد ماندب إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم من سماحة الخلق وسهولة النفس ولين الجانب ؛ بل بصدد تحليل المشابه الواضحة بين خصائص نفس المرء وخصائص الطينة التى خلق منها ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما أورد هذا الحديث ليفتح لنا باب هذاالتحليل ، وليدل على الرابطة الرمزية أو المعنوية بين أوصاف الجبلة البشرية والطينة التى خلقت منها .



فكما أن من الأرض ماهو سهل بطبيعته ، وماهو حزن بطبيعته ؛ فإن من النفوس — تبعاً لذلك — ماهو سهل بطبيعته ، وماهو حزن بطبيعته ؛ والحزن هو الأرض الوعرة الغليظة التى يشق فيها السير لما فيها من صخور وأحجار وعقبات .. ولاشك أن العلاقة واضحة بين حال تلك الأرض وحال مايقابلها من نفوس خشنة غليظة ، يعانى منها الناس ألوانا من شراسة الطبع وسوء المعاملة . ومايقال عن السهل والحزن يقال عن الطيب والخبيث .

وفى هذا الحديث النبوى الكريم إشارة إلى أن الخلق الحسن أو القبيح قد يكون طبيعة فى معدن المرء ، لامنحدراً إليه عن وراثة ، ولامجلوبا له بكسب أومجاهدة .

فكما يكون المكان سهلا ولافضل له فى سهولته ، أو حزنا ولابد له فى تلك الحزونة ؛ نرى من الناس معادن طيبة تثمر الصنيع الحسن دون أن يكون لأصحابها فضل فيه ، ومعادن خبيثة ترسل الشر على سجيتها عفواً بلا تكلف ؛ وفى هذا المعنى يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الناس معادن كمعادن الذهب والفضة : خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا » :

وهذا مبحث من مباحث علم النفس نعرض له — فى هذا المقام — من حيث

نظر الإسلام إليه وحكمه على صاحبه .. فالإسلام الحنيف لايسوى بين من يأتى الخير وله نية فيه تنظر إلى وجه الله ، وبين من يفعله ولانية له ولافقه فى شىء ؛ فأولئك الذين ينطوون على معادن طيبة وطباع سمحة ، لايكتب لهم أجر مايفعلون من خير إلا إذا كانت لهم بصائر مشرقة وفقه مستمد من معرفة الله ، وإلا فكيف يكتب الله أجراً لامرىء لم يرفع إليه عمله ، وكيف يثيب على عمل لم يفكر صاحبه فى ثوابه ؟ .

فالخير فى الإسلام ليس خيراً إلا إذا ابتغى به وجه الله ، والعنصر الطيب ليس طيباً إلا إذا استنار بمعرفته عز وجل ؛ وهذا معنى قوله عليه الصلاة والسلام : « خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا » .

ولاشك أن هذا مذهب جليل فى تقدير الرجال والأعمال : يصحح الأوضاع ، ويعرف لكل ذى قدر قدره ، ويسمو بالمجتمع إلى مستوى رفيع من الكمال ؛ إذ يجعل الأقوال والأعمال جميعاً منوطة بغاية واحدة ومثل أعلى هو الله وحده سبحانه . قالت عائشة رضى الله تبارك وتعالى عنها : « يارسول الله : إن عبد الله بن جدعان كان يطعم الطعام — فى الجاهلية — ويفعل كيت وكيت من المعروف ، أينفعه ذلك عند الله ؟ قال : « لا ؛ لأنه لم يقل يوما : رب اغفر لى خطيئتى يوم الدين » .

فلابد من النية ، ولابد من فقه المثل الأعلى ؛ ولابد من الإرادة ؛ وكل ذلك ليس من خصائص الطين ، ولايستطيع التراب أن يمد المرء بخلجة واحدة منه .

ولانريد أن نسترسل فى هذا المقام إلى ماهو أبعد من ذلك ؛ فإن الغرض هو توضيح مابين طبيعة الأرض وطبيعة البشر من صلات حسية ومعنوية ، أو أن نبرز تلك الوحدة التى تجمعهما فى أصل حسى واحد . وتنتظمهما فى صفات معنوية متشابهة[١] .

---

(١) ينتهى بهذا المقال الفصل الأول من قصص القرآن عن آدم عليه السلام ، ونبدأ فى العدد القادم بمشيئة الله الفصل الثانى عن نوح عليه السلام .

مِن علوم السُّنة

فى البيوع والكسب والمعاش وما يتعلق بالتجارة

لفضيلة الأستاذ الشيخ أحمد عبد الرحمن البنا

(٨)

باب النهى عن بيع الولاء وفضل الماء وعسب الفحل

١ — عَنِ ابْنِ عُمرَ رَضِى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم نهى عن بَيْع الوَلَاءِ[١] وعن هبته .

٢ — عنْ أبى هريرة رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : « لا تبيعوا فضل الماء[٢] ، ولا تمنعوا الكلأ[٣] ، فيهزل المال ويجوع العيال » .



٣ — عن إِيَاسِ بن عَبْدٍ رضى الله عنه من أصحاب النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال : لا تبيعوا فَضْل الماء فإن النبى صلى الله عليه وآله وسلم نهى عن بَيْع الماء والناس يبيعون ماء الفرات[٤] فنهاهم .

٤ — عن أبى الزبير عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما فيما أَحْسِبُ[٥] أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم نهى عن بَيْع الماء .

٥ — عن ابن عمر رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم نهى عن ثمن عَسْبِ[٦] الفحل .

---

(١) يعنى ولاء العتق ؛ وهو إذا مات المعتق ورثه معتقه أو ورثة معتقه وكانت العرب تبيعه وتهبه فنهى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن ذلك .

(٢) المراد به ما زاد عن الحاجة .

(٣) الكلأ : النبات رطب ويابس ، وهو أعم من الخلا والحشيش ؛ لأن الخلا مختص بالرطب والحشيش مختص باليابس ، والكلأ يعمهما . والكلأ المنهى عن بيعه هو الذى يكثر فى المواضع المباحة كالأودية والجبال والأرض التى لا مالك لها .

(٤) الفرات : نهر عظيم مشهور ، وهو كذلك الماء العذب .

(٥) أى فيما أظن والقائل فيما أحسب هو عفان أحد رجال السند .

(٦) الفحل هو الذكر من كل حيوان ، وعسبه : ماؤه .

٦ — عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نهى أن يبيع الرجل فَحْلَةَ فَرَسِهِ [١] .

باب النهى عن ثمن الكلب والسنور ومهر البغى وغير ذلك

١ — عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن مَهْرِ الْبَغِيِّ [٢] وَثَمَنِ الْكَلْبِ وَثَمَنِ الْخَمْرِ .

٢ — وعنه أيضاً قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : ثمن الكلب خبيث [٣] . قال : فإذا جاءك يطلب ثمن الكلب فاملأ كفيه تُرابًا [٤] .

٣ — عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن ثَمَنِ الْكَلْبِ إلاَّ الْكَلْبَ الْمُعَلَّمَ [٥] .

٤ — وعنه أيضاً أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم نهى عن ثمن الكلب ونهى عن ثمن السِّنَّوْرِ [٦] .

٥ — عَنْ أَبِى مَسْعُودٍ عُقْبَةَ بن عمرو رضى الله عنه قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن ثمن الكلب ، ومَهْرِ الْبَغِىِّ وحُلْوَانِ [٧] الكاهِنِ .

٦ — عن جابر رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنه نهى عن ثمن الكلب وقال طُعْمَة [٨] جَاهِلِيَّة .

٧ — عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال : « ثمن الجَرِيسَةِ [٩] حرامٌ وأكلها حرام » .

---

(١) الفرس يطلق على الذكر والأنثى ، والمراد النهى عن بيع ضراب ذكور الخيل وغيرها .
(٢) البغى : الزانية ، والمراد بالمهر هنا ما تأخذه أجرة على الزنا وسماه مهراً لكونه على صورته .
(٣) المراد بالخبيث هنا الحرام .
(٤) كناية عن منعه من الثمن ن معنى التراب هنا الحرمان والخيبة كما يقال ليس فى كفيه إلا التراب
(٥) استثنى فى هذا الحديث ثمن الكلب المعلم للصيد .
(٦) السنور : القط
(٧) أى ما يتقاضاه الكهان والعرافون أجرة ادعائهم استطلاع الغيب ، وشبه بالشىء الحلو لأنه يؤخذ من غير كلفة ولا مشقة .
(٨) الطعمة : وجه المكسب ، والمراد أنه ثمن خبيث نهى الشرع عنه .
(٩) الجريسة : ما يسرق من الغنم بالليل .

الربا

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد أبي زهرة

أستاذ الشريعة الإسلامية بكلية الحقوق بجامعة القاهرة

« أهدى هذا البحث إلى طلبة كلية الحقوق بدمشق »

(٣)

أيها الأبناء الأعزة :

٢٨ — وددت أن ابتدئ القول بالكلام فى الربا الاصطلاحى ، أو الربا الذى جاءت به السنة ، وقد ظننت أنى بلغت ما أقصد من الكلام فى ربا النسيئة ، وهو فى معناه حقيقة لغوية عند العرب ، وجاء به القرآن ، وأجمع المسلمون على تحريمه ولم يختلفوا فيه قط . وددت ذلك ، ولكن فى ندوة علمية للاخوان المسلمين ـ أعز الله بهم الإسلام ـ عقب محاضرة قيمة ألقاها الأستاذ الكبير الدكتور محمد عبد الله العربى جرت مناقشات حول جواز الربا للضرورة ، اشترك فيها فضيلة المرشد العام حفظه الله ، وبعض كبار شيوخ المغرب ، فحق علينا أن نسجل ما انتهت إليه المناقشة العلمية الدينية المخلصة النيرة .

لقد تحدثنا فى الضرورات التى تبيح المحظورات ، ولم نتصور أن ثمة ضرورة اقتصادية أو اجتماعية تجعل المسلمين فى حال اضطرار إلى التعامل بالربا ، وجعله نظاماً قائماً ولو كان على سبيل التوقيت ؛ وقلنا إن أساس الضرورة ألا تكون منجاة إلا بارتكاب المحرم ؛ وقد تأيد نظرنا بالبحث القيم الذى نشرته مجلة « المسلمون » للأستاذ محمود أبو السعود مستشار بنك الدولة بباكستان ، ففيه رسم منهاج قويم لتنظيم اقتصاد الأمة الإسلامية الذى يحل محل النظام الاقتصادى الربوى ، وأحسب أنه لو اتبع لكان أطيب ثمرة ، وأبرك رزقاً ، وأكثر خيراً ، وفيه رضا الله ، والبعد عن مآثم الربا ؛ فإن الربا من السحت كما وردت بذلك الآثار ، وكما هو الحق الذى تدركه العقول .

٢٩ — لقد وُجِّهَت الأسئلة الآتية فى تلك الندوة المباركة .

السؤال الأول : إذا ألغى الربا فما مآل العقود والالتزامات التى بنيت عليه ، فهل تذهب ديون البنك العقارى على الأراضى سدداً بدداً ، ويتحلل كل عاقد مما أوجبه عليه العقد ؛ والعقد شريعة المتعاقدين ؟

والسؤال الثانى : إذا اضطرت الدولة إلى شراء أسلحة ؛ هى مضطرة إليها لأن عدواً يساورها ، ويهجم عليها وهى لا محالة مأكولة إذا لم تشتر أسلحة ، وليس فى خزائنها نقد تؤديه ، ولا بضائع تزجيها . ولا سبيل إلا بالشراء نسيئة على فائدة تدفع ، فهلا تكون هذه حال ضرورة توجب قبول ذلك العقد الربوى ؟

والسؤال الثالث : إذا كان شخص فى حال اضطرار إلى القرض ، ولم يجد إلا من يقرضه بربا ، كأن يحتاج إلى جراحة تجرى فى جسمه ليقطع جزءا مئوفا ، ولا مال معه ، والطبيب لا يعمل إلا بأجرة ، والموت يترصده وهو واقع لا محالة إن لم تجر الجراحة ، فهلا يكون فى حال اضطرار تسوغ له أن يقترض بالربا ؟ .

٣٠ — هذه هى الأسئلة ، وقبل أن نخوض فى الإجابة عنها ، أو تسجيل ما كان جواباً لها فى تلك الندوة المباركة نقرر أن الآراء فى الندوة قد اتفقت على أنه لا توجد ضرورة اقتصادية تسوغ أن يكون الربا نظاماً للتعامل الإسلامى ولو على سبيل التأقيت ، وأن إقرار النظم الربوية القائمة بدعوى أن الضرورة تلجئ إليها ليس من الشرع فى شىء ، وإنما هو تحلل العزائم ، وتقاعد الهمم ، وضعف الوجدان الدينى . وبعد تقرير هذه الحقيقة التى تم الاتفاق عليها ؛ نبتدئ فى الإجابة عن الأسئلة الثلاثة . ونبتدئ بالثالث حتى نعود إلى الأول .



إن هذا السؤال يومئ إلى أن الشخص يكون فى اضطرار لأن يقترض بالربا ، وتلك حال لا تحتاج إلى بحث ولا إلى تنقيب ، وهى من البدهيات المقررة ؛ فإنه إن لم يقترض بالربا فسيتلف جسمه لا محالة ، فهى ضرورة فردية ، لا شك فى ذلك ، وهى تسوغ له أن يقترض بالربا ؛ وهذا لا يسمى تعاملاً بالربا فى حال الاختيار ، وهى مرتبة عفو بالنسبة للمقترض . أما المقرض فإنه يبوء بإثمه وإثم المقترض معاً ، والكسب لا يحل له بحال من الأحوال . فهو كسب خبيث لا شك فى ذلك ، وإذا كان قد أكله فقد اقتطع لنفسه قطعة من النار .

٣١ — وأما السؤال الثانى : وهو اضطرار الأمة إلى شراء أدوات حرب بالربا ، وإلا أبيدت خضراؤها واجتثت من أرضها ، أو ضربت عليها الذلة ، فإنا نجيب عنه ، ولا نقول إنه سؤال فرضىٌّ يشبه أسئلة الفقهاء الذين يفرضون بعض المستحيلات ليحلوا مشاكل يحسبونها متوقعة ، وهى لا يمكن أن تكون واقعة ، ولا إنه يشبه أسئلة بعض الفقهاء الذين وصفهم الشعبى بأنهم الأرأيتيون الذين يتبعون كل مسألة بقولهم أرأيت لو كان كذا وكذا : يفرضون ويقدرون ما ليس واقعا .

لا نقول شيئا من ذلك ، بل نجيب في إخلاص . إنه لو كان مثل هذه الحال ، ولم تستطع الأمة فرض ضرائب تشترى به سلاحا ، ولم تستطع أن تعقد قرضا أهليا يكون قرضا حسنا ، وفرض المستحيل وكان الشعب كله خالي الوفاض ، بادي الأنفاض ولم تجد من يقدم سلاحاً في نظير بضائع ، أولم تكن حق بضائع ، إذا فرضت كل هذه المستحيلات ووقعت ، فإننا نقرر أن الأمة تكون من قبل ومن بعد قد أحاطت بها خطيئاتها حتى تأدت بها الأمور إلى مثل هذه الحال ، وماعليها أن تشترى نسيئه إما بثمن مرتفع خال من الربا ، أو بربا ، وتكون في هذه الحال غير آكلة للربا ولكنها تؤكله ، ولكن هل تخلو الأمة في مجموعها من إثم الربا في هذه الحال ! ! إنها أهملت أمرها ، فلم تعد المصانع ، ولم تأخذ بقوله تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم » . وفرطت حتى صار أمرها فرطاً فلم تنم مواردها : لم تنم موارد الآحاد ولا موارد المجموع ، ولم يستخرج ما في الأرض من ينابيع الخير ، ثم مع ذلك فقد التعاون فيها حتى صارت مطمع الفاتحين . إن هذه كلها آثام تضافرت حتى تأدت بها إلى هذه الحال .

على أنا على أى حال لا نعتبر ذلك من قبيل تنظيم للتعامل بالربا أوجدته الضرورة ، إنما هي حال تشبه حال المكره الملجأ . وإنا بعد هذا نقول : إن هذه صورة تفرض ولا تقع .

٣٢ — وأما السؤال الأول ، وهو خاص بالعقود الربوية التي أبرمت تحت ظل النظام الربوى أتبقى نافذة الأثر لأن القانون الجديد المحرم لا يطبق عليها ؛ إذ المقرر أن القانون لا يطبق على الماضى ؛ فإنا نتلو في الجواب عنه قول الله تعالى : « يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين ، فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله ، وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لاتظلمون ولاتظلمون » هذا هو حكم الله الصريح فيما بقى من الربا ، فالعقود الربوية التي عقدت لا ينفذ فيها إلا رأس المال كما هو نص القرآن ، وهو قضاء الله ورسوله : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم » .

هذا جواب صريح نقرره معتمدين على الله ، ولا عبرة بما يقال من أن ذلك تطبيق للقانون على الماضى ؛ فمحمد صلى الله عليه وسلم قد طبق قاعدة تحريم الربا على الماضى ، فنادى في حجة الوداع : « إن ربا الجاهلية موضوع ، وأول ربا أبدأ به ربا عمى العباس بن عبد المطلب » . فقد أزال كل عقود ربا الجاهلية ، ولم يوجب على المدين إلا رأس المال .

وقد يقول قائل : إن فى ذلك هدماً لعقود أبرمت بالتراضى ، فنقول إنها عقود أبرمت فى إثم ، وهى مفسدة للجماعة ، ولا ضرر ولا استحالة فى إنهاء الربا فيها .

إن الإصلاح الزراعى فى مصر تمّ بضربة واحدة من يد مصلحة ، وبعزيمة حاسمة ، تدفعها نية مخلصة ، وإذا كانت قد أنهيت ملكيات مقررة ثابتة بأسباب شرعية للمصلحة العامة ، وطبق ذلك على الماضى والحاضر والمستقبل ؛ أفلا يسوغ إنهاء حقوق آثمة أوجدتها أسباب آثمة ، وترتب عليها ضرر لاريب فيه ، ومع ذلك فقد مضت لمصر سنة فى إلغاء بعض الفوائد للبنوك العقارية ؛ وذلك فى قانون التسويات العقارية ، وإذا ساغ حذف الجزء فإنه يسوغ حذف الكل ، بل كان الواجب فى الماضى حذف كل الفوائد ، وتنادى بذلك المصلحون ممن يقرون التعامل بالربا ، فكانوا يقولون : لاعلاج للأزمة إلا بإلغاء كل الفوائد ، ولا يكون واجبا إلا رأس المال .

إن الأمر لايحتاج إلا إلى إيمان قوى ، وإخلاص دينى ، وعزمة صادقة ، ونية مخلصة لله ولرسوله .

***

٣٣ — بعد هذا نبتدئ القول فى الربا الذى ثبت بالسُّنة :

لقد روى مسلم أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « الذهب بالذهب مِثلاً بمثل ، والفضة بالفضة مثلا بمثل ، والتمر بالتمر مثلا بمثل ، والبرّ بالبر مثلا بمثل ، والملح بالملح مثلا بمثل ، والشعير بالشعير مثلا بمثل ، فمن زاد أو استزاد فقد أربى ، بيعوا الذهب بالفضة كيف شئتم يداً بيد ، وبيعوا البرّ بالتمر كيف شئتم يداً بيد ، وبيعوا الشعير بالتمر كيف شئتم يداً بيد » .

هذا حديث صحيح تلقاه العلماء بالقبول . وهو الذى يدور عليه القول فى الربا الثابت بالسُّنة ، وقد قلنا إن إطلاق كلمة « ربا » على هذا النوع من التعامل عرف إسلامى ؛ فهو كإطلاق الصلاة على القيام والركوع والسجود . ولذا جاء فى أحكام القرآن للرازى : « إن العرب لم تكن تعرف بيع الذهب بالذهب والفضة بالفضة نساء ربا وهو ربا فى الشرع ، وإذا كان ذلك على ما وصفنا صار بمنزلة سائر الأسماء المجملة المفتقرة إلى البيان ، وهى الأسماء المنقولة من اللغة إلى الشرع لمعان لم يكن الاسم موضوعا لها فى اللغة نحو الصلاة والصوم والزكاة فهو مفتقر إلى البيان[1] »

(١) أحكام القرآن ج ١ ص ٤٦٤

وإن هذا الحديث يدل على تحريم التبايع فى هذه الأصناف الستة فى صورتين :

إحداهما : أن يبيع الشىء منها بجنسه كبيع ذهب بذهب ، أو فضة بفضة ، أو قمح بقمح مع التفاضل بينهما بأن يكون أحد العوضين أكثر مقداراً من الآخر ، ويسمى هذا ربا الفضل : أى الزيادة ؛ لأن فيه زيادة لأحد العوضين عن الآخر مع التماثل فى الجنس والفائدة .

الثانية : أن يبيع ذهباً بذهب مثلا أو فضة بفضة ، أو قمحاً بقمح ، مع التماثل فى القدر ، أو يبيع ذهباً بفضة ، أو قمحاً بشعير من غير تماثل فى القدر وهو مغتفر ، ولكن لايتم فى هذه الحال التقابض فى المجلس ، فإن ذلك يكون ربا ، ويُسمى ربا النَّساء ، وليس هو ربا النسيئة الذى بيَّناه من قبل .

وبهذا يتبين أنه عند اتحاد الجنس فى هذه الأصناف تجب المماثلة فى المقدار ويجب القبض فى المجلس : أى يحرم الفضل ، ويحرم النساء معاً . وإذا اختلف فى المعاوضة الجنس بأن كان البيع مثلا ملحاً بشعير وجب التقابض فى المجلس وجاز التفاوت فى المقدار ويسمى ذلك ربا النساء كما ذكرنا .

٣٤ — هذا هو ربا البيوع الثابت بالسُّنة ، وهو موضع خلاف بين العلماء فى أصله ، وفى وقوفه عند هذه الأموال الستة ، أو دخول غيرها معها بالقياس ؛ وهو الذى ذكر فيه عمر أن من الربا أبواباً تخفى ، وأنه ودَّ لو أن النبى صلى الله عليه وسلم بينه قبل أن يقبضه ربه إليه ، ولنُشِر إلى خلاف العلماء فى شأنه .

أول خلاف وأقدم خلاف جرى فى ربا البيوع هو إنكار ابن عباس رضى الله عنه له ، فقد كان يتمسك بأنه لا ربا إلا فى النسيئة ، وهو الربا الذى ثبت بالقرآن ، وهو ربا الجاهلية الذى بيناه ، واعتمد فى ذلك على ما رواه هو وأسامة بن زيد ، وزيد بن أرقم ، وعبد الله بن الزبير عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا ربا إلا فى النسيئة » وهو حديث صحيح رواه البخارى وغيره ، وقد وافق أولئك الذين ذكرناهم ابن عباس فى قوله ، وعلى ذلك لم يصح عندهم حديث التحريم . ولكن الجمهرة العظمى على أن ربا الفضل والنسيئة لا شك فيهما ، لورود الحديث المثبت لتحريمها ، وإن قصر النبى صلى الله عليه وسلم الربا على ربا النسيئة ، إنما هو لإثبات أنه الربا الكامل ، وأنه ظلم فى ذاته ؛ لأنه أكل للمال بالباطل ، وأخذ له بغير عوض مطلقاً ، وهو استعمال للمال فى غير ما وضع له ، وهو المحرم لذاته .

٣٥ — حتى إذا فرغنا من خلاف ابن عباس ومن معه من صغار الصحابة رضى الله عنهم وانتقلنا إلى أقوال الفقهاء فى ظل الحديث الذى حرم تلك البيوع ، وجدنا كلامهم فى كون الحديث معقول المعنى أم الأمر فيه تعبدى ، وإن جمهرة الفقهاء بلا ريب لا يعتبرون حديثا محرما لنوع من البياعات يكون الأمر فيه تعبديا ، لأن هذه التعبدات التى لا يسأل عن علتها إنما يكون موضعها فى العبادات ، لا فى المعاملات المالية التى تجرى بين الناس ، ولهذا اتفق الجمهور على أن التحريم فى حديث ربا البيوع معلّل معقول المعنى . ولكن من الفقهاء من لا يثبت حكما إلا بنص أو أثر عن الصحابة ، وأولئك هم نفاة القياس وهم الظاهرية ، ومن سلك مثل مسلكهم ، وهؤلاء يقصرون التحريم على ماجاء فى الحديث ولا يقيسون عليه ، فربا الفضل وربا النّسّاء مقصوران على التبادل بين الأنواع الستة المذكورة فى الحديث : وهى الذهب والفضة والقمح والشعير والملح والتمر ، فلا يقاس عليها غيرها وعلى ذلك يقرر هؤلاء أن بيع غير هذه الأصناف بالتفاضل أو بالتأجيل يكون صحيحا ؛ ولو كانت مقدرات بالكيل أو الميزان ، ولو كانت مطعوما يقبل الادخار ، لأن الأصل هو الحل ، ولا دليل يمنعه .

٣٦ — وقد خالف الظاهرية الفقهاء الذين يقيسون ، فلم يقصروا التحريم على هذه الأمور الستة ، بل وسعوا مدى التحريم فى كل ما تتحقق فيه علة التحريم . فربا الفضل والنساء عندهم لا يقتصر على الأصناف الستة المذكورة فى الحديث ، بل يتجاوزها ، فبيع الزبيب بالزبيب لابد فيه من التماثل فى المقدار والقبض فى المجلس ، وبيع الزيت المستخرج من الزيتون مثلا بمثله لابد فيه من القبض فى المجلس والتماثل فى المقدار ، وهكذا .

ولكن اختلف الفقهاء الذين يقيسون فى علة القياس ، وتباينت أقوالهم تباينا كبيراً ، جعل كل مذهب من المذاهب الأربعة ينهج منهاجاً خاصاً به فى استخراج العلة .

٣٧ — فأبو حنيفة وأصحابه اعتبروا العلة المحرمة اتحاد الجنس مع التقدير فى العوضين بالكيل بأن يكون كلاهما مكيلاً لاتعرف مقاديره إلا بالكيل ، أو بالوزن بأن يكون كلاهما لايعرف مقداره إلا بالوزن ، فإذا بيع زيت من بذرة القطن بمثله فلابد من التماثل فى المقدار ، والقبض فى المجلس ؛ وتسمى هذه العلة وهى الاتحاد فى الجنس مع الاتحاد فى التقدير — بأن يكونا مكيلين أو موزونين — العلة الكاملة ، وفى الحقيقة أن العلة فقط هى الاتحاد فى الجنس ، لأنه إن كان الاتحاد فى الجنس فلا بد أن يتحد التقدير . وأما كونه مقدراً بالكيل أو الوزن فهو شرط تحقق العلة ، وإذا كانت العلة كاملة حرم الفضل والنساء .



والعلة الناقصة هى الاتحاد فى التقدير مع اختلاف الصنف كأن يباع زيت من بذرة القطن بزيت من الزيتون ، وفى هذه الحال يحرم النساء ويحل التفاضل ، فيجب القبض فى المجلس ؛ ولكن لا مانع من التفاوت فى المقادير .

هذا منهاج الحنفية ، وهم بهذا لايلتفتون إلى مادة المبيع من كونه من الطعام أو الثمنية ، وكونه يقبل الادخار أو لا يقبل الادخار ، إنما يلتفتون فقط إلى نوع التقدير أهو بالكيل فيهما أم بالوزن منهما ، ثم اتحد الجنس أم لم يتحد وبهذا جعلوا القياس الضابط ، أو الوصف الظاهر المنضبط هو نوع التقدير أبالوزن أم بالكيل ، فإن اتحد العوضان فى كونهما موزونين أو مكيلين حرم النساء ؛ وإن اتحدا مع ذلك فى الجنس حرم الفضل والنساء .

ومع ما للفقهاء الحنفية من مقدرة فى ضبط الأقيسة نخالفهم فى أن العلة هى الكيل فى العوضين أو الوزن فيهما ، وذلك للأسباب الآتية : —

أولها : أن علة التحريم لاتؤخذ من أداة التقدير للشىء ، إنما علة التحريم تكون فى ذات الشىء ، فإذا كان النبى صلى الله عليه وسلم قد خص بعض الأشياء بمنع التفاضل فيها عند اتحاد جنسها ، وضرورة قبضها عند بيع بعضها ببعض ، فلابد أن يكون ذلك التحريم لأوصاف أو منافع خاصة فى هذه الأموال ؛ لا لكونها تكال أو توزن .

ثانيها : أن الوزن والكيل ليسا وصفين ملازمين للأموال ، بل هما أمور عارضة . ومن الأشياء ما تعين مقاديرها فى بلد بالكيل ، وفى آخر بالوزن ؛ فالزيوت يقدر بعضها فى بعض البلاد بالكيل ، وفى آخر بالوزن ؛ وإن ذلك قد يؤدى إلى أن يكون نوع قد تتحقق فيه علة الربا فى بلد ، ولا يتحقق فى بلد آخر ؛ فيكون الشىء الواحد حراما لأنه ربوى فى بلد ، وحلالا لأنه غير ربوى فى بلد آخر ، ويكون للشارع فى أمر واحد حكمان متناقضان .

ثالثها : أننا لو سايرنا هذا المبدأ لترتب على ذلك أنه يجب التقابض فى أكثر البياعات ؛ فلو بيع زيت بذهب لوجب التقابض فى المجلس ، ولو بيع تمر فى مصر بفضة لوجب التقابض فى المجلس ، ولو بيع الحديد الذى يقدر بالقناطير بالذهب لوجب التقابض ، وإن هذا لغريب ، ولذلك تدارك الفقهاء الأمر ، وأهملوا قاعدة الوزن أو الكيل فيما جرى العرف بالتفاوت فى وزنهما ، وقد ذكر من ذلك كمال الدين ابن الهمام بيع الحديد بالذهب ، فإنه ليس فيه نساء مع أنهما مقدران بالوزن إلا أن وزن هذا ليس من نوع وزن ذاك .

٣٨ — هذا رأى الحنفية ، وظاهر مذهب أحمد ، وينسب هذا النظر إلى عمار ابن ياسر رضى الله عنه . ولقد قال حذاق المالكية فى علة التحريم بالنسبة للنقدين : الذهب والفضة إنه الثمنية : أى كونهما أثمانا ، والأثمان لا يصح أن تكون موضع بياعات حتى لا يؤدى ذلك إلى الربا الأصلى المحرم لذاته ، وهو ربا النسيئة الذى ذكره القرآن الكريم ، ولم يختلف فيه أحد من الصحابة ولا التابعين ولا الفقهاء المجتهدين ، ولا غيرهم فى أى عصر من العصور ، فالعلة فى تحريم التفاضل والنساء فى النقدين هو سد الذريعة للربا الأصلى ، ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم : « لا تبيعوا الدرهم بالدرهمين فإنى أخاف عليكم الرماء » والرماء هو الربا ، وفوق ذلك أن الأثمان مقاييس ضابطة للسلع ، فهى التى تضبطها وتُعرّف قيمتها ، فلا يصح أن تكون هى ذاتها فى الأمة الواحدة سلعة تباع وتشترى وتجرى عليها المساومات ، ويجرى فيها التعجيل والتأجيل ، إلا أن يكون ذلك قرضا حسنا .

أما تحريم بقية الأنواع الستة عند المالكية فعلته هو الطعم : أى كونها من الأطعمة الضرورية لبنى الإنسان والادخار ، فالعلة مكونة من جزءين (أحدهما) كون هذه الأشياء من أنواع الطعام ، (وثانيهما) كونها قابلة للادخار ، فلو لم تكن أطعمة أو كانت أطعمة غير قابلة للادخار كاللحوم فى عامة أحوالها فى الجملة فإن الربا لا يدخلها ، وإذا توافر هذان الركنان واتحد الجنس حرم الفضل والنساء ، وإذا توافرا من غير اتحاد الجنس حرم النساء فقط ، ولا عبرة بكونها مكيلة أو موزونة إلا فى تعيين المقادير ليتحقق التفاوت فى ربا الفضل .

والحكمة واضحة فى هذا ، وهو منع بيع هذه الأصناف فى هذه القيود ، لكيلا يؤدى الأمر إلى احتكارها وهى أقوات الناس التى تقوم عليها حياتهم .

٣٩ — هذا نظر المالكية ، أو كما قال بعض الفقهاء نظر حذاقهم . وأما نظر سائرهم ومعهم الشافعى ورواية عن أحمد رضى الله عنه ، فهو كالرأى السابق ، غير أنه لم يشترط الادخار ، أى أن تحريم الربا بنوعيه فى بيوع النقدين فكما ذكرنا آنفا ، وأما بقية الأنواع الأربعة فعلة التحريم هو كونها من المطعومات من غير أن يكون الادخار جزءا من العلة ، أو شرطا من شروطها ، وهذا موضع الفرق بين هذا الرأى وسابقه ، وعلى ذلك تكون هذه العلة أعم من سابقتها ، وأكثر شمولا ؛ لأنها تدخل ربا البيوع فى كل مطعوم ، سواء كان مما يدخر عادة أم لم يكن ، فاللحوم يدخلها الربا ، وهكذا كل طعام لا يحل البيع فيه إلا مقابضة .

٤٠ — هذه هى الأنظار المختلفة فى تخريج الحديث النبوى فى ربا الفضل والنساء ، وهى أنظار خمسة ، أولها نظر ابن عباس ومن معه من صغار الصحابة ؛ وهو أنه لا ربا إلا فى النسيئة ، ثم نظر الظاهرية ، ثم نظر الحنفية ، ثم نظر حذاق المالكية ، ثم نظر الشافعية ، ولا شك أننا لا نختار نظر ابن عباس رضى الله عنهما ، لأننا لا نتتبع غرائب الفتيا ، ولأننا لا نستطيع أن ننكر حديثاً تلقاه علماء الأمصار فى كل الأقطار بالقبول . كما أننا لا نختار رأى الظاهرية ؛ لأن حديثا جاء فى معاملات الناس لا بد أن يكون له مرمى ومغزى يتصل بالتعامل ، فحيث تحقق ذلك المغزى فالحديث يتجه إليه ، وتنتهى أحكامه عنده ، وقد ذكرنا أننا لا نختار رأى الحنفية ، وقد بينا السبب الفقهى الذى سوغ لنا مخالفته .

وإذا كان ثمة ما يقبل الترديد ، فهو فى النظرين الأخيرين ، وإنا نختار منهما بلاريب نظر حذاق المالكية وهم الذين يجعلون العلة فى غير النقدين الطعم والادخار معا .



٤١ — وهنا نجد من اللازم أن نبين حكمة تحريم هذه البيوع . أما النقدان فقد ذكرنا أن التفاضل فيهما يؤدى إلى أن تكون سلعا ، وذلك خروج بها عن طبيعتها ، إذ أنها إذا صارت سلعا ضعفت قوة تحريمها ، ولكن لماذا حرم النساء فيها ولماذا حرم بيع درهم بدرهم على أن يؤجل القبض ، وما الفرق بين هذا وبين القرض الحلال الحسن . إنه إذا كان العقد عقد بيع وأساسه درهم بدرهم ، أو دينار بعشرة دراهم مثلا ، فإنه من الغرر والجهالة . أن يكون أحد العوضين غير قائم وحاضر فى المجلس ؛ لأنه ما دام القصد المعاوضة فلا بد أن تكون المعاوضة على شيئين معينين ، وإذا أجل أحدهما فهو دين فى الذمة فلا يكون معروفا ، بل يكون أحد العوضين معروفا ، والآخر غير معروف ، أيسوغ فى عرف عاقل أن يذهب رجل إلى صراف فى مصرف ليقول اعطنى عشر ورقات من ذات الخمس لأعطيك بعد أسبوع ورقة من ذات الخمسين ؟ إن ذلك لا يكون عقد صرف ، فلهذا المعنى المعقول حرم الصرف إلا إذا كان العوضان قائمين حاضرين ، ليعرف كل واحد منهما حقيقة العوض .

والفرق بين الصرف الذى يؤجل فيه أحد العوضين ، والقرض أن القرض أساس الاتفاق فيه أن يأخذ مقداراً من المال ، على أن يثبت دينا فى ذمته يؤديه فى ميسرته ؛ فمعنى المعاوضة فيه وقت العقد مختفية ، ولذلك خرجه الفقهاء على أنه تبرع ابتداء معاوضة انتهاء ، ويقول بعض الفقهاء إنه عارية استهلاك ، ولذلك قرر أبو يوسف من فقهاء الحنفية أن المقدار المقترض لا يثبت الضمان فيه إلا بعد استهلاكه فى حاجاته ؛

لأنه قبل ذلك فى حكم الأمانات ، وخالفه غيره وقال : إنه بمجرد قبضة يكون مضمونا .

فالفرق بين بيع نقد بنقد نساء وبين القرض هو فى طبيعة العقد نفسه ؛ فإن الحقيقتين مختلفتان ، ونهى النبي عن بيع النقد بالنقد نساء ، حتى لا يكون ذلك ذريعة إلى الربا الحقيق ، وهو ربا الجاهلية ، بأن يزيد فى نظير التأخير باسم البيع .

٤٢ — أما المطعومات القابلة للادخار فإن تحريم المعاوضة بأجناسها مع التفاضل ، الحكمة فيه واضحة ، وهى منع احتكارها لمن يملكونها ، فمن عنده شعير إذا باعه بشعير متفاضل ، فإن ذلك يؤدى إلى ألا ينال شيئا من عنده نقود وليس عنده شعير ، فضيق صلى الله عليه وسلم سبيل المقايضات فيها ؛ إذ أنه إذا تقايض من عندهم الأقوات أقواتهم وتيسر لهم ذلك تعجيلا وتأجيلا ، وتفاضلا وتساويا أدى ذلك إلى ألا ينال منها شيئا من عنده نقود وليس عنده قوت ؛ ولذلك أمر النبي صلى الله عليه وسلم من عنده تمر متفرق ردىء يسمى جمعا أراد أن يشترى به جنيبا أى تمراً جيداً مع زيادة الردىء عن الجيد أمره بأن يبيع الجمع ويشترى بثمنه جنيبا فقال له عليه السلام : « بع الجمع بالدراهم واشتر بالدراهم جنيباً » .

ولا شك أن فى ذلك فائدتين : (إحداهما) أن من ليس عنده تمر لا جيد ولا ردىء وعنده نقود يحصل على التمر مطلقا ولو أجيزت المقايضة مع التفاضل ما أكل هذا تمراً قط ولا وصلت إليه حبة منه .

(الفائدة الثانية) أن قيمة الفرق تتعين تعينا دقيقا لا غبن فيه إذ دخلها المقياس النقدى الذى يقوم الأشياء والمواد .

٤٣ — لقد قررت أنى أقبل الحديث الصحيح ولا مناص لى من قبوله ، وإنى أختار فى تخرجه ما ارتآه حذاق المالكية ، ولكنى وجدت بعض الذين يسيرون وراء الأوربيين الذين تعلموا العربية يقولون : إن ذلك الحديث مكذوب على النبي صلى الله عليه وسلم وقد اخترعه اليهود ليمنعوا العرب من الاتجار ، وتستمر التجارة بأيديهم ، ويتحكموا بذلك فى أسواق المسلمين ، ويزعمون أن ذلك نظر دقيق قد قاله أولئك الأوربيون ، وكانوا بذلك أعمق فهما من علماء المسلمين الذين لم يدركوا هذا فى كل العصور .

ذلك قولهم ، وليس غريباً أن نسمع ذلك من أولئك الذين رضوا أن يكونوا عبيداً للأوربيين حتى فى فهم دينهم ، إنما الغريب حقاً وصدقاً أن يُدَّعى أن حديث الربا يصرف المسلمين عن الاتجار ، فسيكون بأيدى غيرهم ، ومن أجل هذا كذب اليهود على النبي فروجوا هذا الحديث . فإن هذا هو الغريب فى العقل حقاً وصدقا !

٤٤ — إن حديث الربا يؤدى إلى تضييق البيع بالمقايضة فى أنواع الطعام الذى يقبل الادخار ، وإن تضييق باب البيع بالمقايضة فى أى باب من أبوابها لا يعدُّ قطعاً لسبيل التجارة ، إنما هو تنمية للتجارة بكثرة البيع والشراء ، فهو يفتح باب الاتجار ويوسعه ، ويحرك البضائع ويجعلها سائلة بين الأيدى كلها لا فى يد طائفة بعينها ؛ انظر إلى قول النبي صلى الله عليه وسلم : « بع الجمع بالدراهم واشتر بالدراهم جنيباً » فإنه لو باع صاحب التمر الردىء لصاحب التمر الجيد بمثله أو أكثر منه لا نحصرت المعاملة بينهما ، ولم تفتح للسوق بابا ، ولم يجر فيها التنمية المستمرة باستمرار الانتقال بين الأيدى ، لأن المتقايضين ليسوا متجرين ، إنما هم مستهلكون غالباً ، وإن فتح باب المقايضة يغلق باب الاتجار ، وعلى ذلك يكون تضييقها فتحا لباب الاتجار .

إن التعامل بالمقايضة كما يقول علماء الاقتصاد هو من شأن الأمم التى لم تتسع نظمها الاقتصادية ، وإن إدخال النقود فى التعامل كان فيه توسيع أبواب الاتجار ، والنبى صلى الله عليه وسلم فى حديث الربا الخاص بالبيوع قد حفظ للنقود قوتها فى ضبط القيم وقياسها ، وضيق باب المقايضة فى المطعومات التى تدخر ؛ لتكون النقود سبيل التعامل ، فتكون حركة تجارية تمكن من لا عنده طعام أن يناله ، فيكون الاتجار بين المسلمين لا أن يمنعوا منه .

٤٥ — أيها الأبناء الأعزة : هذه قبسات قبستها من الشريعة وألقيتها بين أيديكم ، وقد حاولت أن أصل إلى الحق فى كل ما قلت ، لا أبغى إلا أن أبين لكم وللناس حقيقة شريعتنا فى ذلك الأمر الخطير ، لكى يكون بناؤنا الاقتصادى فى المستقبل قائما على دعائم من الأخلاق الفاضلة ، والهدى القرآنى ، والشرع المحمدى ، وما كنت فيها إلا متبعا ما جاء به القرآن الكريم ، وما قاله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإنى فيما أكتب وفيما أبحث لا أتبع الرجال على أسمائهم ، ولكنى أتبع الحق ، وفقنى الله وإياكم ، وهدانا إلى سبيل الرشاد ، وإلى تعرُّف هذه الشريعة ، وإعلام الناس بها من غير أن نخضعها للزمان ، بل نخضع الزمان لأحكامها .

والسلام عليكم ورحمة الله ؟

إثبات النواميس النفسية فى القرآن

لأبى نعمان المهاجر

اقتضت حكمة الله سبحانه فى كتابه العزيز أن يثبّت قلب نبيه محمد عليه الصلاة والسلام بذكر نواميس الدعوة إلى الله ، وما يلاقى أصحابها من صعاب ومتاعب ، وما يضطرون إلى بذله من تضحيات جسام ، كما اقتضت أن تكون ذكرى تاريخ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام منطوية أيضاً على العبرة العظيمة فيما أصاب المكذبين لهم من نقمات الله ومثلاته .

فلأجل المعنى الأول يقول الله سبحانه مخاطباً نبيه عليه الصلاة والسلام : « قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون » . فالله سبحانه وتعالى يعلم أن محمداً بشر من الناس يحزنه ما يحزنهم من الأذى والمكروه ، فلهذا أحزنه ما يقولونه فى شأن رسالته من الكذب والتكذيب ، ثم يبين الله سبحانه لنبيه الحقيقة الرائعة ، وهى أن هؤلاء المكذبين لا يكذبونه فى الواقع ، أى لا يعتقدونه كاذباً لأنهم يعلمون فى تاريخ أخلاقه العظيمة ، وسجاياه الكريمة أنه ليس من شأنه الكذب والتضليل : « فإنهم لا يكذبونك ، ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون » .

ولكنهم يكذبون بآيات الله نفسها ، وفى هذا إثبات للحجة عليهم فإنهم إذا كانوا لا يعتقدونه كاذبا فى تاريخ أخلاقه وسجاياه فهم يناقضون أنفسهم حين يجحدون آيات الله المنزلة عليه .

* * *

وتشاء الرحمة الإلهية بعد ذلك أن تخفف عنه عليه الصلاة والسلام ما به من حزن فتصوّر له عبرة الأنبياء من قبله فى صبرهم على التكذيب والأذى ، وما يتبع ذلك من سنة الله فى نصرتهم دائما : « ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدّل لكلمات الله » . . . وإن من الروعة بمكان عظيم أن تحدد نهاية الصبر بإتيان النصر ، أى أنهم يصبرون مادامت المحنة ، وما دام الأذى والتكذيب حتى تنتهى الحاجة إلى الصبر ، وينتهى ميعاد التكليف به ، بل وينتهى معناه وذلك

عند مجيء النصر ، فإذا كان الدعاة بهذه المنزلة فى الصبر فإن سُنة الله تقتضى نصرتهم لا محالة ، « ولا مبدل لكلمات الله » ، « ولقد جاءك من نبأ المرسلين » : أى جاءك ما تعرف به يا محمد أن كلمات الله لم تتبدل مع أحد منهم .

* * *

وهكذا فالناموس الإلهى الثابت فى تاريخ الأنبياء هو الناموس الثابت فى تاريخ سواهم ، وهو أن النصر لا يقع إلا لمن يستحقه من الصابرين ، والصبر يتحقق من الأنبياء بصورة قاطعة لأنهم الأئمة الذين يهدون بأمر الله ويعرفون نواميسه وشرائعه ، ويتحقق أيضا فى سواهم ممن ذهب فى سبيلهم واهتدى بهديهم ، ولو فى هذه الناحية فقط : ناحية الصبر ، والثبات ، والاستعداد ، فهذه هى سنة الله التى لا يغيرها من أجل أنبياء ولا مرسلين ، فلا يعطى النصر بغير أسبابه ، ولا فى غير حينه وأجله ، لذلك يخاطب حبيبه العظيم بهذه الصرامة القاهرة : « فإن كان كَبُرَ عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغى نفقاً فى الأرض أو سُلماً فى السماء فتأتيهم بآية » : أى لئن أعوزك الصبر وكبر عليك الإعراض فليس أمامك إلا المستحيل ، وهو النفق فى الأرض أو السلم فى السماء فإن الله لا يغير نواميسه . وهذا تمثيل رائع يضربه الله لنا ليصور الشبه بين المحسوسات والمعقولات ، ويجمعها معا فى حكم واحد ، فكما أن لله سبحانه نواميس لا تتغير فى العالم الطبيعى المحسوس ، فكذلك له نواميس لا تتغير فى المجالات النفسية والقوى الأخلاقية .

ثم تقول الآية الكريمة : « ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونَنَّ من الجاهلين » : أى أن الله سبحانه لم يشأ أن يغير من سنته فى إثبات البلوى على خلقه ، ولو شاء لجمعهم على الهدى فلا تكونَنَّ يا محمد من الجاهلين لهذه السُّنة .



* * *

ويأتى بعد هذا البيان المعجز التصريح بهذه السنة النفسية الثابتة وذلك فى قوله سبحانه : « إنما يستجيب الذين يسمعون ، والموتى يبعثهم الله ثم إليه يرجعون » : أى إنما يتأثر بالدعوة ويذعن لها أولئك الذين يستمعون إليها ، وهم على استعداد لقبول الحق غير مصرين على العناد والإنكار ، أما الذين أماتوا نفوسهم ، وقضوا على ما فيها من ملكات الهداية والإذعان والرشد ، فإنهم لن يرجعوا عن غيهم ، ولن يفتحوا أعينهم إلا يوم يبعثهم الله فتتجلى هنالك لهم وجوه الحق التى كانوا عنها صما وعميانا .

وفى هذا أيضا تشبيه للموت المعنوى بالموت الجثمانى ، وهو شائع فى القرآن الكريم . قال الله سبحانه وتعالى : « وما يستوى الأعمى والبصير ، ولا الظلمات ولا النور ،

ولا الظلّ ولا الحرور ، وما يستوى الأحياء ولا الأموات ، إن الله يُسمع من يشاء وما أنت بمسمع من فى القبور ، إن أنت إلا نذير » .

***

هذا هو الجانب الأول من ذكرى تاريخ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وهو جانب التثبيت لقلب محمد عليه الصلاة والسلام .

وأما الجانب الآخر فهو تصوير العبرة الزاجرة للكافرين والمعاندين وتذكيرهم بما حدث لأسلافهم من الأمم التى أصمت سمعها عند الذكرى والموعظة ، وأقفلت قلوبها عن معانى الاعتبار والازدجار ، قال الله سبحانه وتعالى :

« ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون ، فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم ، وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون ، فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون ، فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين » .

أمانة راع

مرّ عبد الله بن عمر بن الخطاب براع مملوك ومعه غنم سيده ، فأراد أن يمتحن أمانته فقال له : هل من جزرة (شاة تصلح لأن تجزر) ؟

قال الراعى : ليس ههنا ربها

قال ابن عمر : تقول له « إن الذئب أكلها »

فقال له الراعى : اتق الله !

فسر ابن عمر واشترى الراعى من سيده وأعتقه ، واشترى الغنم أيضاً ووهبها له .

طبيعة المجتمع الإسلامي

للأستاذ سيد قطب

(٢)

لقد جاء الإسلام فوجد جذور عهد الرق ما تزال ثابتة وعميقة . فابتدأ بالبشرية من هذا السفح ، ليأخذ بيدها إلى آفاقه الإنسانية العالية ، التى تهدف إليها مبادئه الكريمة . ولكنه — وهو دين الفطرة — لم يكن ليقفز بها قفزاً . والمهم أن نثبت أن مبادئه العليا التى تسبق اليوم آخر ما وصلت إليه البشرية فى خلال أربعة عشر قرنا كانت قائمة فيه منذ اليوم الأول . وأنه منذ ذلك اليوم قد أخذ بيد البشرية فى طريق الترقى إلى الآفاق المرسومة خطوة خطوة فكان التطور ، لا فى مبادئه وأهدافه ، ولكن فى قرب البشرية يوماً بعد يوم من هذه المبادئ والأهداف . . وهذا ما ينفى فكرة التطور التاريخى من أساسها بالقياس إلى الفكرة الإسلامية وإلى نظام المجتمع الإسلامى .



لقد بدأ الإسلام بالبشرية من حيث هى ، ليربطها بعراه ربطا واقعيا ، ثم ليقودها بعد ذلك فى مدارج الكمال . . جاء والرق نظام عالمى ، واسترقاق أسرى الحرب عرف دولى . وكان يملك أن يبطل الرق فى المجتمع الإسلامى بجرة قلم ، كما أبطل الربا . ولكنه فى هذه الحالة ما كان ليزيد على أن يترك الأسرى من المسلمين يسترقون عند أعدائه ، بينما يحرر هو أسرى الأعداء عنده . وبذلك يطمع أعداء الإسلام فى المسلمين ، وهم يؤسرون المسلمين فيتحررون ، ويأسرون المسلمين فيتخذون منهم عبيداً وإماء حسب العرف الدولى السائد فى ذلك الزمان !

لهذه الضرورة الواقعية التى لم يكن يملك الإسلام فى نشأته لها حلاً ، لأنه لا يملك أن يجبر الآخرين على تحرير الأرقاء ولا على عدم استرقاق الأسرى . ولا يملك أن يجعل أسرى المسلمين للكافرين وحدهم أرقاء ، بينما يحرر هو أسراه من الكافرين . . لهذه الضرورة الواقعية وضع الوسائل الكفيلة بتجفيف موارد الرق فى المستقبل ، حتى يصبح من الممكن عقد معاهدات دولية تمنع استرقاق أسرى الحروب . ولم ينص هو على استرقاقهم كى يدع الأمر مفتوحاً . بل أشار إلى إطلاقهم فقال : « فإذا أثخنتموهم

فشدوا الوثاق . فإما منًّا بعدُ وإما فداءً حتى تضع الحرب أوزارها[١] » ولكنه ترك للدولة المسلمة حرية التصرف حسبما تقتضيه الأحوال .

ترك الإسلام الأمر على هذا الوضع من ناحية المبدأ — مراعاة لواقع البشرية كلها فى ذلك الزمان — ثم راح يعالجه من ناحية الموضوع على طريقته التحريرية ، واتجاهاته الإنسانية . . وحينما كان العبيد فى الدولة الرومانية بجانبه يلقون للوحوش الكاسرة يصارعونها للترويح عن صدور السادة ! وبينما كان من حق السيد أن يمثل بعبيده كيف شاء . وبينما كان القانون الرومانى يضع مواد لمعاملة السادة ومواد لمعاملة العبيد . . بينما كان هذا يقع فى العالم كله ، وفى قلب الجزيرة العربية التى شهدت مولد الإسلام . كان محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم وهو من ذؤابة قريش أشرف العرب ، يزوج ابنة عمته زينب بنت جحش من مولاه زيد . وكان يولى أسامة بن زيد قيادة جيش المسلمين الذاهب لمحاربة الروم وبين جنوده أبو بكر وعمر وزيرا رسول الله والخليفتان بعده — عليهما رضوان الله — وكان بلال بن رباح الحبشى هو داعى الدعاة إلى الإسلام ، وسلمان الفارسى هو مستشاره الحربى ، وصهيب الرومى من صحابته الذين يأذن لهم عمر بن الخطاب قبل أن يأذن لأبى سفيان . وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « من قتل عبده قتلناه ومن جدع عبده جدعناه[٢] » .

على هذا المنوال عالج الإسلام قضية الرق من ناحيتها العملية ، إلى أن يجد لها حلاً عمليا من ناحيتها الدولية . وفى هذا الجانب وحده كانت مراعاة الإسلام لواقع الأمر فى البشرية يوم جاءها . ومنذ أن جاءها لم يعد لعهد الرق وجود فى الوطن الإسلامى ، لأن معالم هذا العهد وخصائصه كما ذكرناها قد بهتت فى الحياة الاجتماعية الواقعية بحكم تعاليم الإسلام فى معاملة الأرقاء ، الذين اضطر للامساك بهم فترة من الوقت حتى يتهيأ له عقد ميثاق دولى عام .

فأما عهد الإقطاع بمعالمه وخصائصه التى أسلفنا فلم يوجد قط فى الوطن الإسلامى ، لأن الإسلام كان قد أخذ عليه الطريق . . لقد وجدت ملكيات كبيرة أحياناً نتيجة للانحراف عن سياسة المال وسياسة الحكم كما رسمها الإسلام . ولكن عهد الإقطاع بخصائصه تلك لم يوجد على الرغم من وجود الملكيات الكبيرة فى بعض الأحيان . فلم يقع فى المجتمع الإسلامى أن كانت علاقات الإنتاج ، ولا حقوق الملاك ، على النحو الذى سار عليه نظام الإقطاع فى أوربا . وبذلك يمكن القول باطمئنان : إن المجتمع الإسلامى لم يمر بهذا العهد منذ أن ولد الإسلام إلى الآن .

---

(١) سورة محمد : ٤ (٢) أخرجه الشيخان

كذلك الأمر حين ننظر إلى موقف الإسلام من عهد الرق ، فمنذ سيطرة الإسلام لم يعد للرق خصائصه التى عرف بها فى المجتمع الغربى . وكل علاقة الإسلام به أنه جاء فوجده قائما ، فأخذ فى تخفيف موارده ، بقصر أسباب الاسترقاق على الحرب الشرعية وحدها — وكان فى هذا يعالج الواقع كما أسلفنا — كما أخذ فى تفتيت مقوماته الاقتصادية بتقرير مبدأ التكافل الاجتماعى (الذى سنفصل القول فيه فيما بعد) ومقوماته القانونية بالتسوية بين جميع الناس فى الحقوق . ومقوماته الاجتماعية بإزالة الحواجز بين السادة والعبيد ، بل بتسوية الموالى وتوليتهم القيادة .

لذلك كله يمكن القول باطمئنان : إن المجتمع الإسلامى لم يعرف عهد الرق ولا عهد الإقطاع ، ولم يعترف بخصائصهما التقليدية فى أية فترة من فترات التاريخ ؛ ولم يكونا أحد الأطوار التاريخية التى مر بها المجتمع الإسلامى .



* * *

ولقد عرفت المجتمعات الأوربية — بعد نظام الإقطاع — نظاماً جديداً هو النظام الرأسمالى . عرفته فى عهود تاريخية متأخرة . إذ بدأت بذوره مع الحروب الصليبية فى القرن الحادى عشر الميلادى : أى بعد ما اطلعت أوربا على النظم الاجتماعية الإسلامية وتأثرت بها ، فكرهت نظام الإقطاع الذى كان سائداً فيها . وهذا السبب يغفله أصحاب النظريات المادية لأنهم لا يريدون أن يُدخلوا العنصر الإنسانى فى خط سير التطور التاريخى . ويكتفون بإبراز الأسباب الاقتصادية التى صاحبت الحروب الصليبية ، ونشأة المدن التجارية فى جنوب أوربا .

واتباعا لهذه النظرة يلخص الدكتور راشد البراوى فى كتاب «النظام الاشتراكى» أسباب انهيار النظام الإقطاعى وبروز النظام الرأسمالى فيقول :

« ذلك أن قوى إنتاجية جديدة ظهرت وصارت أصلح لتقدم الجماعة . وهذه القوى الإنتاجية الجديدة ما كانت لتستطيع أن تجد مجال نشاطها وعملها واسعا أو على الأقل ممكنا طالما استمرت العلاقات الإقطاعية قائمة من نواحيها الاقتصادية والسياسية والاجتماعية

« وقد هيأت الحروب الصليبية الفرصة أمام أوربا للاتصال التجارى مع الشرق ، وخلقت فرصا واسعة أمام مدن جنوب أوربا ، وبخاصة مدينة (البندقية) التى حصلت على امتيازات تجارية فى المراكز التى احتلتها القوات الصليبية فى الشرق ، وأخذت البضائع الشرقية تتدفق على البندقية لتوزع على مختلف الأقاليم الأوربية ؛ ويقابلها من جانب أوربا المنتجات الصوفية والحبوب والخمور ؛ وتمتعت البندقية بشبه احتكار

ضخم ، وتجمع لدى تجارها ثروات ضخمة . الأمر الذى دفع بتجار مدن الشمال ، وبخاصة (لوبيك) و (دانتزج) و (همبورج) و (برنزويك) إلى عقد محالفة تجارية للدفاع عن مصالحهم ؛ وأسسوا « عصبة الهانسا » وهكذا ظهرت المنافسة التجارية مما ساعد على ازدياد النشاط التجارى بين أوربا والشرق ؛ واستطاع تجار هذه العصبة الحصول على امتيازات اقتصادية فى المراكز الرئيسية فى أوربا ، مثل (برجن) فى النرويج و (نوفجرود) فى روسيا و (بروكسل) فى الأراضى الواطئة . .

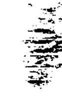
« هذا النشاط التجارى كان عاملا حاسما فى ازدياد القوة الاقتصادية للمدن التجارية وبالتالى أهلها : أى الطبقة البرجوازية . ولم يقف السبب فى ازدياد ثرائهم عند حد التجارة الخارجية ، بل إنهم كانوا يستغلون حاجة أمراء الإقطاع إلى الأموال ليسدوا بها نفقات حروبهم وحياتهم الخاصة ، فيقرضونهم مقابل فوائد باهظة . وأهم من هذا أن هذه المدن استطاعت أن تشترى حريتها من الأمراء الإقطاعيين سواء كان الأخيرون من العلمانيين أو من رجال الدين . وأكثر من هذا فقد نشطت الحرف وتنوعت منتجاتها عن ذى قبل ، وبهذا صارت الصناعة اليدوية مصدراً — وإن كانت أقل أهمية وخطراً من التجارة — لتجميع الأموال ؛ وبالتالى لزيادة نفوذ الطبقة البرجوازية . وهى التى كان لها الأثر الفعال فى العمل على هدم النظام الإقطاعى » . . .



ونحن — من جانبنا — لا نحب أن نغفل أثر العوامل الاقتصادية المعروضة هنا . ولكننا نرى أن التحكم البحت هو الذى يدعو إلى إغفال الأثر الإنسانى للاحتكاك بين جيوش الصليبيين وجيوش المسلمين ، وإلى تأثر الصليبيين بالأوضاع الإسلامية الحرة ، التى لا تعرف سلطة أمراء الإقطاع كما يعرفها المجتمع الغربى .. وتأثر الصليبيين بمشاهداتهم فى الأرض الإسلامية مسألة تاريخية ثابتة ، ففيم هذا التحكم لإغفال أثر الأوضاع الإسلامية الحرة فى نفوسهم ؟

وعلى أية حال فالثابت تاريخيا أن نظام الإقطاع — كما صورته الفقرات السابقة فى أوربا — لم يكن له وجود فى الشرق الإسلامى وبخاصة فى الناحية الاقتصادية والناحية السياسية . . لم تكن هناك ارتباطات بين الأشراف وأتباعهم من ناحية التبادل ولا من ناحية الإشراف القانونى والسياسى ، فلم يتأثر المجتمع الإسلامى بالعوامل التى تأثرت بها المجتمعات الأوربية ، ولم يسر فى الخط التاريخى الذى سارت فيه . ولم يكن لمولد النظام الرأسمالى فى أوربا أثر فى خط سير المجتمع الإسلامى ، ولا فى الأسس التشريعية والنظم الاقتصادية التى تضمنتها شريعته قبل مولد النظام الرأسمالى فى أوربا بحوالى ثمانية قرون .

ولقد توجد مشابه بين بعض النظم الإسلامية وبعض خصائص النظام الرأسمالى كحق الملكية الفردية . وحق الاستثمار الفردى ، وحق الإرث . . ولكن علينا أن نذكر أن هذه الأصول قد تضمنتها الشريعة الإسلامية قبل مولد النظام الرأسمالى بثمانية قرون ؛ غير متأثرة بالعوامل التاريخية التى تأثرت بها المجتمعات الأوربية ، ولامعاصرة لقواعد التفكير الرأسمالى الذى جاء متأخراً جداً . وهذه المشابهة سطحية فى حقيقتها لأن النظام الاجتماعى الإسلامى نظام متكامل . ، غير مقيد ولا مقلد لأى نظام لاحق — وأسبقيته تمنع منعاً طبيعياً من التقليد — والمهم أن نتذكر دائماً أن سائر النظم قد تكون متأثرة أو غير متأثرة بجزئيات من النظام الإسلامى ، لأنها متأخرة عنه . أما هو فمن غير المعقول أن يكون قد أخذ منها . ومولده سابق على أقدمها بحوالى عشرة قرون . وشريعته ثابتة غير متأثرة فى أصولها بعوامل التطور التاريخى .



نقول : إن هذه المشابهات ليست إلا ظاهرية وجزئية . وأنا أعرف الكثيرين يرون الإسلام مثلا يقرر حق الملكية الفردية وحق الاستثمار الفردى وحق الإرث فيتصايحون : نظام رأسمالى !

وبغض النظر عن اختلاف النشأة التاريخية للنظام الإسلامى والنظام الرأسمالى ، فإننا نعرض لبعض الموازنات الموضوعية بين قواعد النظامين هنا على سبيل الاجمال لنتبين سطحية ذلك التصايح التقليدى !

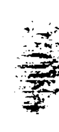
إن الربا والاحتكار قاعدتان أساسيتان من قواعد النظام الرأسمالى . والربا والاحتكار محرمان تحريما باتا فى النظام الإسلامى . (وسيجىء تفصيل هذا فى مكانه)

كذلك نجد أن انقسام المجتمع إلى دول قومية كان من المظاهر السياسية الملازمة لنشأة النظام الرأسمالى وهذه القومية الحادة هى التى حملت معها نظام الاستعمار للاستيلاء على الخامات واحتكار الأسواق ؛ باعتبار « الاستعمار أعلى مراتب الرأسمالية » كما يقول لينين . بينما الإسلام ينكر الشعور القومى الحاد ، ويتجه اتجاهاً عالمياً ، ويجعل حدوده هى حدود الفكرة لا تخوم الأرض . ومن ثم يستبعد فكرة الاستعمار لاحتكار الأسواق . وبذلك يتجه اتجاهاً مضاداً للتفكير الرأسمالى .

أما الملكية الفردية والاستثمار الشخصى والإرث وما إليها فتقوم فى الإسلام على أسس أخرى غير الأسس التى تقوم عليها فى النظام الرأسمالى . فالملكية الفردية ليست سوى وظيفة اجتماعية . أما أصل المال فهو لله والجماعة كلها مستخلفة فيه عن الله .

والأفراد نائبون عن الجماعة فى استثماره بطرق تحددها الشريعة ، وليست مطلقة من كل قيد . وحق الجماعة فيه ثابت . فهو يرد على الجماعة كلما احتاجت إليه وبقدر الحاجة وحسبها . ومن ثم فالملكية الفردية فى الإسلام شىء آخر غير الملكية الفردية فى النظام الرأسمالى . شىء مستقل فى أساسه وفى اتجاهه . والمشابهة ظاهرية وجزئية . وكذلك سائر الحقوق المترتبة على الملكية الفردية . . . (وسيأتى تفصيل هذا كله فحسبنا هذه الإشارة المجملة فى هذا المقام) .

هذه المشابهات الظاهرية الجزئية التى توجد بين النظام الإسلامى والنظام الرأسمالى يوجد مثلها أو أكثر منها بينه وبين النظام الاشتراكى والنظام الشيوعى . وهذا وحده كاف فى الدلالة على أن النظام الاجتماعى فى الإسلام ليس واحداً من هذه النظم لوجود بعض خصائص متفرقة فيها مجتمعة فيه . وذلك فوق أنه سابق عليها فهى قد تأخذ منه ولكنه هو لم يأخذ منها على وجه اليقين . وعلى أية حال فيحسن أن نمضى فى بعض الموازنات الموضوعية بين النظام الإسلامى والنظام الاشتراكى ، ثم بينه وبين النظام الشيوعى بصفة إجمالية حتى يجىء التفصيل فى مكانه .



لقد عجز النظام الرأسمالى عن مجاراة التطور الاجتماعى فى أوربا .. « لقد كان دعاة النظام الرأسمالى — وبخاصة فى أواخر القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر — يعلنون أنه يقوم على مبدأ المنافسة الحرة ، وهى منافسة تنسجم فيها مصالح الأفراد والجماعات . وأخذ النظام الرأسمالى يسير فى طريق تطوره ، وإذا بهذه المنافسة يتضاءل شأنها تدريجاً ، وإذا بالحياة الاقتصادية قد أصبح طابعها الاحتكار — وهو نقيض المنافسة — أما ذلك الانسجام الذى تحدث عنه الكتاب فقد وضع مكانه التعارض بين المصالح ، وارتفعت الأصوات تندد بهذه الظاهرة . الأمر الذى حمل الدولة على التدخل باطراد للحد من قوة هذا التعارض وخطورته ، ولرعاية مصالح الطبقات والطوائف الضعيفة والمستضعفة ومحاولة توفير الطمأنينة لها .. وتضخمت الديون الأهلية . وزادت أعباؤها بصورة بالغة ، وأصبحت عنصراً أساسياً من عناصر المجتمع الحديث ، وقوة تعمل على إضعاف بنيانه ومقدرته على المقاومة . ومن الناحية الدولية نجد أن الصراع بين الدول الرأسمالية الكبرى أدى إلى التنافس الشديد على مصادر المواد الأولية وأسواق السلع ورؤوس الأموال ، وهو التنافس الذى ينتهى بالصراع ، مما يدل عليه الحربان اللتان نشبتا فى النصف الأول من القرن الحالى . فالحركة الاستعمارية التى نشطت فى عهدها الحديث منذ أواخر القرن التاسع عشر ، بما اتصفت به من متناقضات

ومنازعات وحروب إن هى إلا مظهر للتطور الرأسمالى الاحتكارى[1] » .

عندئذ — ولهذه الأسباب — اتجهت انجلترا بصفة خاصة إلى الاشتراكية ، كما اتجهت روسيا إلى الماركسية . وإن كانت قد أحدثت فيها تغييرات عملية هامة تكاد تخرجها عن طبيعتها النظرية الأولى . وكل ماتضمنته الاشتراكية وتضمنته الشيوعية من مبادئ إنما جاء وليداً لتلك التطورات التاريخية ، أما المبادئ التى جاءت فى النظام الإسلامى فى هذا الاتجاه فهى ذاتية أصيلة فى النظام الإسلامى . تضمنتها الشريعة الإسلامية يوم جاءت من عند الله قبل أربعة عشر قرنا ؛ وقد جاءت لتصوغ المجتمع على وفقها ، لا لأن التطورات الاجتماعية هى التى ولدتها : أى أنها كانت قوة دافعة للتطور الاجتماعى لانتيجة تبعية له . وعلى حين تؤدى المبادئ الاشتراكية أو الماركسية دورها التاريخى وتنتهى بسبب أنها نتيجة تبعية للتطور ، لاقوة دافعة للتطور .. على حين ينتهى دور هذه المبادئ عند حد معين ويحتاج المجتمع إلى مبادئ جديدة ، فإن مبادئ الإسلام تظل تعمل لأنها أكبر من الحاجات الوقتية للبيئة بسبب أنها لم تكن وليدتها ، بل كانت وستكون محركة لها فى طريق الرقى الدائم المرسوم منذ أربعة عشر قرناً .

إن الاشتراكية تلتقى مع الإسلام فى نقط كثيرة فى الجانب الاقتصادى .. تلتقى معه مثلا فى محاولة ضمان حد أدنى لائق للأفراد من حيث العمل والمسكن والصحة والتعليم . وتوفير العمل للمواطنين جميعاً بوصفه حقاً من حقوقهم الأساسية .. وتلتقى معه فى أنها لا تدعو إلى القضاء المطلق على الملكية الفردية . مع تأمين المرافق المتصلة بالموارد العامة للثروة كالمناجم .. وتلتقى معه فى التقريب بين مختلف طوائف المجتمع ، ومنع الإسراف الذى لا مبرر له ، وامتصاص الثروة الفائضة حتى يتوافر للدولة المال الكافى لمواجهة الأعباء الاجتماعية للشعب كله . واتخاذ التأمين الاجتماعى والضمان الاجتماعى قاعدتين أساسيتين للتكافل الاجتماعى .

ولعل هذا الالتقاء هو الذى يوجد تلك الشبهة عند الدعاة الإسلاميين أنفسهم ، فيتحدثون عن « الإسلام الاشتراكى » وعن « اشتراكية الإسلام » وعن « الاشتراكية الإسلامية » وما إليها ..

ولكن الواقع أن أسبقية النظام الإسلامى تمنع من إعطائه وصفا لاحقا . هذا من ناحية الشكل . أما من ناحية الموضوع فالإسلام نظام متكامل تجىء فيه

(١) كتاب النظام الاشتراكى للدكتور راشد البراوى .

هذه الاتجاهات مرتكنة إلى أصول ثابتة ، ومعتمدة على فكرة كلية متناسقة الأجزاء متصلة بالعقيدة فى الله . . بينما الاشتراكية فكرة مادية عن الحياة لا تتناول غير الجانب الاقتصادى فى حياة المجتمع . ومن ثم فهى جزئية ووقتية . بينما النظام الإسلامى كلى ودائم . ومن ثم لا يجوز ربطه بنظام ولدته ضرورة طارئة ومصيره إلى التحور أو إلى الزوال . فضلا على أنه هو الأصل الذى تقرن الاشتراكية إليه ، فيقال : إن فيها ما يشبه الإسلام فى كيت وكيت . و لا يجوز أن يقرن الإسلام إليها وهو سابق عليها بثلاثة عشر قرنا من الوجهة التاريخية !

ثم يبقى هنالك فارق موضوعى أصيل ، وهو أن الاشتراكية بسبب أنها مذهب مادى اقتصادى بحت ، مجرد من العناصر الأدبية التى تمازج النظام الاجتماعى فى الإسلام . لهذا السبب يمكن أن يقوم فى ظلها استعمار خبيث كالاستعمار الإنجليزى ، دون ما حرج ولاتعارض مع صلب النظام الاشتراكى. الأمر الذى لايمكن أن يتم فى ظل النظام الاجتماعى الإسلامى ، بسبب ارتكان هذا النظام إلى عقيدة أدبية تنكر هذا اللون من الاستعمار إنكاراً باتاً .. إن النظام الاجتماعى فى الإسلام نظام إنسانى عالمى ، أما النظام الاشتراكى فنظام قومى محلى . . وهذا الفارق الأساسى فى طبيعة النظامين تترتب عليه فروق كثيرة ، تجعل المشابهات بينهما مجرد اتفاقات ظاهرية وجزئية . .



أما النظام الشيوعى فتصطدم فكرته بفكرة الإسلام من أساسها . ومع أن الشيوعية قد تلتقى بالإسلام فى محاربته للطغيان الرأسمالى ، وفى توفير الضروريات لكل فرد ، وفى أصل ملكية الجماعة للمال . . إلا أن التصادم بين طبيعتها وطبيعة الإسلام كلى وعنيف وعميق .

إن المادية الجدلية تنفى كل مؤثر فى حياة البشر — بل فى الكون كله — خارج عن الطبيعة المادية لهذا الكون . وبهذا تصطدم منذ الخطوة الأولى بالعقيدة فى الله ، التى تقول بأن هناك إرادة عليا فى الكون هى التى تصرفه . وإن كانت تصرفه وفق ناموس ثابت : « سُنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا » .

وميزة العقيدة الإسلامية هنا أنها — وهى تثبت وجود الناموس الذى يجرى الكون عليه ، وتقول : إنه ناموس لايتخلف — لاتنسى أن هذا الناموس لايوجد ذاته ؛ فتثبت تلك الإرادة العليا التى أوجدت الناموس ، وتفسر وجود الحياة على وجه الأرض ، ولا تهرب من هذه العقدة التى لاتجد لها المذاهب المادية حلاً بغير الهروب منها !.

والمادية التاريخية تصغر من قيمة الدور الذى يؤديه الإنسان فى تطوير الحيـــاة ونظمها وقوانينها وعلاقاتها الاجتماعية ، أو تنفيه أحياناً ، وتجعل الدور الأساسى لأداة الإنتـــاج « فحسب هذه النظرية تجد أن الأسباب النهائية لكافة التغييرات والتحولات الأساسية يجب البحث عنها لا فى عقول الناس ، أو سعيهم وراء الحق والعدل الأزليين ، وإنما فى التغييرات التى تطرأ على أسلوب الإنتاج والتبادل » كما يقول « إنجلز » صديق كارل ماركس وزميله فى صياغة النظرية ! ذلك بينما الإسلام يعد الإنسان خليفة الله فى الأرض ويجعل له الدور الأساسى فى كل ما ينشأ على وجهها من تغييرات .

وسنتحدث عن هذا المعنى بالتفصيل — فيما بعد — ولكن حسبنا هنا أن نقول: إن للنظرة الإسلامية وللنظرة الشيوعية إلى الإنسان أثرها فى صلب النظامين . فالشيوعية حين تحتقر الدور الإيجابى للانسان فى هذه الأرض تحتقر هذا الإنسان ضمناً ولا تعنى بأكثر من توفير غذائه وحاجاته الجسدية ، وتغفل القيمة الأدبية لإرادته وحريته ومشاعره . والإسلام حين يجعل الدور الإيجابى فى الأرض للانسان يتأثر فى تشريعه لهذا الإنسان بتلك النظرة فيمنحه الاحترام الكافى لروحه وعقله وإرادته ، ويحاول أن يوفر له بجانب ضرورياته المادية كل ما يتفق مع كرامة الإنسان فى شعوره وفى حريته وفى علاقاته العائلية والاجتماعية ، وفى حقوقه على الدولة وشخصيته أمامها . . . إلخ . وعلى العموم فإن كلتا النظرتين تترك طابعها العميق فى معاملة هذا الإنسان فى كل حقل من حقول الحياة .

* * *

وبعد فإن الماركسية تغالى حين تدرس النظام الاجتماعى فى أوربا ثم تقول : إن النتائج التى وصلت إليها نتائج عالمية ، وتعطيها صيغة التعميم العلمى . . والواقع التاريخى الذى بين أيدينا ينقضها من أساسها ؛ ويثبت أنها أولاً نتائج جزئية خاصة برقعة من الأرض ، غير منطبقة إطلاقاً على الرقعة الإسلامية الضخمة فى أى دور من أدوارها التاريخية . كما يثبت ثانياً أن الاعتدال العلمى كان يقتضى أن يحسب حساب عوامل أخرى فى التطور الاجتماعى ، غير العوامل الاقتصادية . . . إن للاقتصاد قيمته وأثره من غير شك . ولكن فى الكون شيئاً آخر بجانب الاقتصاد هو الشعور الإنسانى ، وشيئاً آخر بجانب الآلة هو هذا الإنسان !

وأخيراً فإننا نخرج من هذا الموضوع بالحقيقة التى لا اعتساف فيها . . . إن النظام الإسلامى ليس هو الرق ، وليس هو الإقطاع ، وليس هو الرأسمالية ، وليس هو الاشتراكية ، وليس هو الشيوعية .. إن النظام الإسلامى هو فقط .. النظام الإسلامى .

خاطرة

شامبليون !

أهذه شامبليون التى كانت فى يوم قريب مدينة متلألئة تملأ العين وتشق الموج متهادية تخطر من ثغر إلى ثغر ؟ .

أهذا الركام المتحطم الذليل ... هو الذى كان بالأمس « شامبليون » الجميلة ناقلة الأحياء من شاطىء إلى شاطىء ؟ !

ماذا دهى الباخرة الجميلة فطمس معالمها ، وأذهب رواءها ، ورماها كسيرة تغطيها ذرى الموج ، ويعبث بها الزبد الهائج فى مياه بيروت ؟ أين ذهب ذاك الجمال ؟ أين غاب ذاك الرواء ؟... أدبر كما تدبر الأيام ... وأبى القدر العاتى إلا أن يقضى الجمال نحبه على مرأى من الأعين المشدوهة الزائغة ... وعلى بعد مائتى متر من الشاطىء (لا أكثر) ومع ذلك عجزت حيلة البشر أن تمد لها يداً ، وأنزل القدر بها ضربته غير منازع ، وقضى عليها بالدمار ، كما أذن لها من قبل بالحياة ، ولم يعد فارق — حين استعلن القدر القاهر — بين مائتى متر وآلاف الأميال ، ولا بين زورق من زوارق الإنقاذ التى انقلبت بأصحابها وشامبليون الضخمة التى شق الموج العاصف صدرها ...

***

وبادرت دول كثيرة إلى إرسال قطع من أسطولها للانقاذ ، ففشلت محاولاتها الهائلة جميعاً ، ونجحت محاولة واحدة قام بها فتى « مسلم » من بيروت ، أنقذ بها أكثر أهل السفينة ، وكان أكثر الغرقى من البحارين الذين اعتمدوا على سواعدهم حين هجم شبح الموت ... فطواهم ساعد أعتى وأشد ... وهذه عبرة ساخرة تسوقها لغة الأقدار الرهيبة ... الأقدار التى لاتعوزها الأسباب حين تشاء أمراً ، ولاينازع مشيئتها أمر وإن توفرت كل أسبابه ودواعيه : « إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون » .

ورأى الناس فى الفتى البيروتى قوة « فتى مسلم » ... فكيف لو رأوا فيه وفى أمثاله قوة « الإسلام » ؟ !

***

تباركت ياخالق الموت والحياة ، وتعالت قدرتك وحدك يامالك البحر والبر والأرض والسماء !

أنت وحدك تعلم كيف قضى ركابها لياليهم قبل الليلة الليلاء ، وأنت وحدك تعلم كيف لم يجدوا غير بابك بابا يدقونه حين انقطعت بهم سبل الرجاء ، وأنت سبحانك الذى قلت : « ربكم الذى يزجى لكم الفلك فى البحر لتبتغوا من فضله إنه كان بكم رحيما . وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفوراً ، أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصبا ثم لاتجدوا لكم وكيلا ، أم أمنتم أن نعيدكم فيه تارة أخرى فيرسل عليكم قاصفاً من الريح فيغرقكم بما كفرتم ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا ؟؟ »

من فقه القرآن والسنّة

شروط البيع

للأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى

أستاذ الشريعة الإسلامية بكلية الحقوق بجامعة القاهرة

بعد أن بينا فى الكلمة السابقة المنهج الذى يجب اتباعه فى سبيل استخلاص الفقه من كتاب الله وسنة رسوله المصطفى ، وذكرنا أهم المراجع التى ينبغى الرجوع إليها فى هذه الناحية وكلها خاصة بآيات وأحاديث الأحكام الفقهية ، نبدأ باسم الله بالكلام موضوعيا فى باب المعاملات المالية .



ولعل أهم هذه المعاملات مايدخل تحت عنوان البيع على ضروبه العديدة المختلفة ، وبحث البيع يتطلب الكلام على شرعيته ، وأركانه ، وكيفية انعقاده ، وماقد يكون فيه من خيار يمنع لزومه حال انعقاده ، ثم شروط البيع الصحيح شرعا ، إلى غير ذلك كله من المباحث التى عنى الفقهاء بها .

ولكن ، لعل من أهم هذه الموضوعات كلها موضوع شروط البيع الصحيح ؛ إذ متى عرفنا هذه الشروط نعرف فى الوقت نفسه حكم البيوعات المختلفة والعمليات المالية التى تجرى فى هذه الأيام . ولذلك نرى — رغبة فى حصر الموضوع وفى الإيجاز — أن نقصر البحث هنا فى شروط البيع الذى يعتبره الشرع صحيحاً .

وقد رأينا ، بعد استعراض الآيات التى وردت فى البيوع ، وكذلك ما يناسبها من الأحاديث والآثار ، أن هذه الشروط سبعة[1] ، على أن فى بعض هذه الشروط خلافا بين الفقهاء ، وهذه الشروط هى :

١ — أن يكون المبيع مملوكا للبائع .

٢ — وجوده تحت يده حين العقد .

٣ — أن يكون حلالاً بيعه وتملكه وتمليكه .

٤ — ألا يكون فى العقد ربا .

٥ — أن يكون هناك سبب شرعى للبيع .

(١) لاضير علينا إن اختلف الفقهاء ، كما هو معروف ، فى عدد شروط البيع الصحيح ، فقد رأينا أن نرجع فى هذه الشروط إلى الكتاب والسنة وحدهما لا إلى كتب الفقه .

٦ — أن يكون الثمن حلالا التعامل به .

٧ — الإشهاد على البيع .

***

وإذا كنا رأينا أن تكون هذه الكلمة ومابعدها مقصورة على شروط البيع الصحيح ، فإن من الخير أن نقدم لذلك بكلمة عن فهم الفقهاء لآية : « وأحل الله البيع وحرّم الربا » من سورة البقرة ، فإن هذه الآية — مع ماجاء من سنة الرسول في معاملاته — هي أساس حل البيع وشرعيته . كما أننا سنرى أن الخلاف في فهم هذه الآية الجامعة يؤدي في رأي بعض العلماء إلى التوسيع في « ماصدق » البيع الجائز المشروع ، ويؤدي في رأي الآخرين إلى التضييق منه إلى حد كبير .

يرى أكثر الفقهاء ومفسري آيات الأحكام أن كلمة « البيع » في هذه الآية يراد بها أوسع معانيها وأعمها ؛ فإن هذا اللفظ لم يتقدم له ذكر في القرآن من قبل هذه الآية حتى يكون خاصاً بضرب بعينه من البيوع ، بل عام يشمل كل مايطلق عليه أنه بيع إلا مانهى عنه شرعا بعد ذلك بالكتاب أو السنة .

ولذلك يقول الإمام القرطبي عند تعرّضه لهذه الآية : « هذا من عموم القرآن ؛ والألف واللام للجنس لا للعهد ، إذ لم يتقدم بيع مذكور يُرجع إليه . . . وإذا ثبت أن البيع عام ، فهو مخصَّص بما ذكرناه من الربا وغير ذلك مما نُهي عنه ومُنع العقد عليه ، كالخمر والميتة .. وغير ذلك مما هو ثابت في السنة وإجماع الأمة النهي عنه(١) » .

ومعنى أن « البيع » هنا يراد به العموم ، أن الآية تدل على كل ما يطلق عليه أنه بيع جملة وتفصيلا ، إلا ما ينهى عنه الشارع ويحرمه بدليل آخر من القرآن أيضاً أو السنة ، وهذا ما ذهب إليه جمهور الفقهاء .

وذهب آخرون إلى أن الآية ليست من قبيل العموم ، الذي قد يبقى على عمومه وقد يدخله التخصيص ، بل من قبيل الإجمال الذي لا بد له من تفصيل . ومعنى هذا أن الآية تفيد حِلّ البيع في الجملة ، ثم يكون التفصيل الذي يبين ماكان منه مباحاً وجائزاً بجانب المحرم غير الجائز ، وهذا التفصيل يكون بنص أو نصوص أخرى .

وهذا الفرق بين العام الذي قد يحتاج إلى تخصيص ، وبين المجمل الذي لابد له من بيان وتفصيل ، فرق له خطره الكبير ، ولهذا يجب ملاحظة ذلك لفهم دلالة النص واستخراج الأحكام الفقهية منه . «فالعموم — كما يقول القرطبي — يدل على إباحة

(١) الجامع لأحكام القرآن ، ج ٣ : ٣٥٦

البيوع فى الجملة والتفصيل ما لم يخص بدليل ، والمجمل لا يدل على إباحتها فى التفصيل حتى يقترن به بيان[١] » .

على أن الاختلاف بين هذين الفهمين لتلك الآية ليس له أثر من الناحية العملية ؛ فإنها وإن أباحت — على الرأى الصحيح الذى رضيه جمهور الفقهاء — حلّ البيع بعامة ، فقد جاءت السنة مخصصة لها . ذلك بأن العرب كانوا يتعارفون ضروباً مختلفة من البيع ، ومنها ما كان سبباً فى أ كل بعضهم أموال البعض بالباطل ، فجاءت السنة النبوية دليلا يخصص الآية ويبين ما يجب رعايته فى البيع من شروط حتى يكون صحيحاً شرعاً .

وهذه الشروط يرجع بعضها إلى موضوع البيع نفسه أو الثمن ، ويرجع بعضها إلى المتعاقدين ، ويرجع بعضها الآخر إلى صفة العقد أو وقت حصوله . وفقد شرط من تلك الشروط ، قد يجعل العقد منهياً عنه : باطلا أو مكروهاً . ثم إن النهى عن عقد من عقود البيع قد يرجع ، فى التحليل الأخير ، إلى ما فيه من الربا ، أو إلى أنه يؤدى إلى أ كل مال الغير بالباطل . ولهذا يرى القاضى ابن العربى بحق أن كل مانهت عنه السُّنة من البيوع قد أحاطت به هاتان الآيتان : « وأحلّ الله البيع وحرّم الربا » من سورة البقرة ، « لاتأ كلوا أموالكم بينكم بالباطل » من سورة النساء[٢] .

والآن ، نأخذ فى الكلام على الشروط التى ذكرنا آنفاً ، شرطا بعد شرط ، وهى فى معظمها مما يرجع إلى المبيع أو الثمن ، كما أن فى بعضها خلافاً بين الفقهاء كما ذكرنا من قبل .

أولاً — ملكية المبيع :

روى مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله عليه الصلاة والسلام نهى عن بيع الغَرَر ، كما روى عن نافع عن عبد الله بن عمر عن الرسول أنه نهى عن بيع حَبَل الحَبَلة . ونجد ، مع هذين الحديثين ، أحاديث أخرى تنهى عن هذه البيوع ونحوها لاحاجة لذكرها الآن ، على أنه سيأتى الإشارة إلى بعضها .

وعن عمر بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لايحل سلف وبيع ، ولا شرطان فى بيع ، ولا ربح ما لم يضمن ، ولا بيع ما ليس

(١) نفس المرجع ، ص ٣٥٧ . وارجع إلى أحكام القرآن لابن العربى أيضاً ، جـ ١ : ١٠١ — ١٠٢ ، ففيه كذلك أن الآية من باب العموم لا الإجمال .
(٢) أحكام القرآن ، جـ ١ : ١٠٢ — ١٠٣

عندك» . وأخرج أبو داود فى سننه عن حكيم بن حزام « أنه قال : يارسول الله ، يأتينى الرجل فيريد البيع ليس عندى ، أفأبتاعه له من السوق ؟ فقال : «لاتبع ماليس عندك»

وهذان الحديثان اللذان جاء فيهما النهى عن « بيع الغرر » وعن بيع الإنسان ما ليس عنده ، من الأحاديث التى تحكم كثيرا من المعاملات حتى فى أيامنا هذه ، وبخاصة ما يجرى منها فى « سوق العقود » ، وهذا ما سنبحثه بالتفصيل فيما بعد إن شاء الله تعالى .

وبيع الغرر هو البيع الذى فيه مخاطرة ، والنهى عنه — كما يقول النووى فى شرحه لصحيح الإمام مسلم[1] — أصل عظيم من أصول البيوع ، ولهذا قدمه « مسلم » فى صحيحه . ويدخل فى بيع الغرر مسائل كثيرة غير منحصرة ؛ كبيع الحيوان الضال ، والشىء المعدوم أو المجهول ، ومالا يقدر البائع على تسليمه وإن كان مملوكا له ، ومالم يتم ملك البائع عليه ، وبيع السمك فى الماء الكثير ، واللبن فى الضرع ، والحمل فى البطن ، وبعض الكومة من الطعام أو الحبوب إذا كان هذا البعض مبهما ، وبيع ثوب غير معين من أثواب ، ونظائر ذلك كله ، فكل هذا بيعه باطل ، لأنه غرر من غير حاجة .



أما بيع حَبَل الحَبَلة ، فهو نوع من بيع الغرر ، ولكن نص عليه الرسول صلى الله عليه وسلم ، لأنه كان من ضروب البيع المتعارفة عند العرب فى الجاهلية ، فقد روى نافع عن ابن عمر قال : كان أهل الجاهلية يتبايعون الجزور إلى حبل الحبلة ، وحَبَل الحَبَلة أن تُنتج الناقة ثم تحمل التى نتجت ، فنهاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك[2] .

هذا ، وقد قلنا من قبل فى المنهاج الذى اصطنعناه للبحث ، إن تركيب بعض الآيات والأحاديث كان سبباً لاختلاف الفقهاء فى الأحكام الفقهية التى تؤخذ منها ، ومن ذلك هذا الحديث . فقد رأى طائفة منهم أن النهى عن بيع حبل الحبلة ، هو النهى عن بيع يؤجل فيه الثمن إلى أن تلد الناقة ويلد ولدها . ويعضد هذا الرأى تفسير ابن عمر الذى رويناه ، وبه قال مالك والشافعى ومن تبعهم .

ويرى آخرون ، أن المراد به النهى عن بيع ولد الناقة الحامل ، وبه قال ابن حنبل وغيره من الفقهاء ، وهو تفسير تعضده اللغة ولذلك ذهب جمع من أساطينها ، مثل

---

(١) جـ ٤ : ٣

(٢) شرح النووى ، جـ ٤ : ٤ . والحبلة جمع حابل كظالم وظلمة ، يقال : حبلت المرأة فهى حابل والجمع نسوة حبلة . والجزور : هو البعير ذكراً كان أو أنثى .

أبي عبيدة ومَعمر بن المثنى ، والقاسم بن سلاّم ، وهو ما نميل إليه ، وإن كان تفسير الراوي يقدم إذا لم يخالف الظاهر(١) .

ومهما يكن ، فإن هذه الأحاديث التى ذكرناها آنفاً تدل دلالة واضحة على أن بيع الإنسان مالا يملك غير صحيح شرعاً ، وهو منهى عنه لأنه ضرب من ضروب الغرر ، فهو بيع معدوم ومجهول وغير مقدور على تسليمه للمشترى . وفى بعض ذلك — فضلا عن جميعه — مايستثير الخصومات بين المتعاقدين ، على حين أن البيع يجب أن يقوم على التراضى ولا يحدث النزاع كما هو معروف .

وما ينبغى لأحد أن يذكر فى هذا السبيل بيع الفضولى الذى تقرّه الشريعة ، مع أن البائع يبيع ما لا يملك . لا ينبغى هذا ، لأن هذا البيع ينعقد صحيحاً للحاجة إليه أحياناً وفى كثير من الحالات ، لكنه بيع موقوف على إجازة المالك إن كان الفضولى يبيع عنه ؛ فإن لم يجزه بطل ، وإن أجازه صار لازماً ، وحينئذ يكون الذى باع فى آخر الأمر هو المالك المبيع لا الفضولى الذى أدخل نفسه فى العقد .

« الحديث موصول »

سر استعصام لغة العرب على المستشرقين

قال العلامة الألمانى « فريتاغ » فى معجمه الكبير فى اللاتينية والعربية :

« ليست لغة العرب أغنى لغات العالم فحسب ، بل إن الذين نبغوا فى التأليف بها لا يكاد يأتى عليهم العد ؛ وإنّ اختلافنا عنهم فى الزمان والسجايا والأخلاق أقام بيننا — نحن الغرباء عن العربية — وبين ما ألفوه فيها حجاباً لا نتبين ما وراءه إلا بصعوبة » .

(١) وراجع النووى ج ٤ : ٤ — ٥ ، فتح البارى لابن حجر ج ٤ : ٢٨٤ — ٢٨٥

أيها المحلّفون !

لا . . . الله لا الملك

(٣)

أيها السادة :

إن سيداً عسكرياً من أمثال الكولونيل جوير (Col. Gwyer) الذى يحضر هذه الجلسة ، واسمه الكولونيل بيتش (Col.Beach) ذهب إلى بومباى ؛ وكما ورد فى برقية لصحيفة بيونير (Pioneer) قابل هذا الضابط الشهم الذى قدم من قيادة الجيش فى سملا بعض زملائى من مراسلى الصحف المحلية ووكالات الأنباء على مائدة مستديرة ، وكان مما صرح به بمناسبة إلقاء القبض على إخوان على (Ali Bros.)[1] مع أن القضية لم تزل فى يد العدالة . (يقرأ من الجريدة) : فيما يتعلق باعتقال « إخوان على » يقول الكولونيل بيتش كعسكرى : « إنه كان جديراً بهؤلاء الذين يحاولون إغراء الجنود للتحلل من ولائهم للحكومة أن يتفكروا قليلا : هل يمكن للجندى الذى نكث ولاءه أن يعود موالياً لأى أمر مما كان موالياً له من قبل ؟ » .

ذلك قول الكولونيل بيتش كما يخبركم بصفته العسكرية . مرحى كولونيل بيتش ! (ضحك) إن ذلك يبدو رأياً سديداً ومنطقاً ممتازاً بالنسبة لجندى ! (ضحك) .

ولكن ، لأنكلم كمسلم لا كجندى ، هل لى أن أسأل : من هو المغرى ؟ إن كل طفل يولد فى هـــذه الدنيا على الفطرة جندياً لله ثم يفتنه أمثال الكولونيل بيتش والكولونيل جوير ممن نصبوا أنفسهم للفتنة والتغرير فيبعدونه عن واجبه الأول وولائه الأوحد . وهل لنا أن نسأل كذلك هؤلاء أمثال بيتش وجوير : هل جنود الله الذين تحللوا مرة من ولائهم لله يمكن أن يعتمد على ولائهم لهم أو للغاية التى كسبوهم من أجلها ؟ إن الواجب الأول على المرء ولاؤه لربه ، وإن القرآن يقول بأن أرواح البشر قبل أن تحل فى الأجساد سألها الله تعالى « ألست بربكم قالوا بلى[2] » إذن فاشنقوا هذه الأرواح جميعاً أيها السادة ، فهناك كان أصل الاتفاق الذى تبحثون عنه لإثبات

---

(١) كان هذا التعبير يطلق على الشقيقين محمد على وشوكت على لشدة ارتباط جهاد كل منهما بجهاد الآخر .

(٢) « وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ؟ قالوا » الأعراف : ١٧٢

هذه المؤامرة الإجرامية بموجب المادة ١٢٠ (١) و ١٢٠ (ب) (ضحك) . كلا أيها السادة . إن صاحبكم بيتش وأمثاله فى قيادة جيش سملا ، وصاحبكم جوير وأمثاله من قواد الجبهة الغربية ، هم الذين يفتنون الجنود عن واجبهم . فإن كانت لديكم أية عقيدة ، وإن كان لديكم أى إيمان بالله ، فإن واجبكم الأول وولاءكم الأسبق إنما يكون لله رب العالمين . أليس ذلك هو واجب المسيحيين الذين يؤمنون بالله ؟ أليست تلك عقيدة الهندوك ؟ أليس واجب الهندوكى الأول طاعة ربه كريشنا ؟ . . ثم بعد كل ذلك لا تزال تتكلم عن الولاء للملوك !

لقد أصدر كاتب إنجليزى ، مسيحى غير مسلم يدعى هـ . ج . ولز (H.G. Wells) كتاباً رمزياً بعد الحرب (العالمية الأولى) عن الشعب البريطانى ولا أدرى إن كان اتفق لأحدكم أن قرأه ، وعنوانه « مستر برتلنج يبصرها[1] » فماذا يقول ؟ ماذا يرى مستر برتلنج المفروض فيه أن يكون الإنجليزى العادى خلال تلك الحرب المروعة ؟



إنه يقول : إن رأس الأمر الدين ، وإن غاية الأمر الدين ، والمرء الذى لم يبدأ حياته به لا يتمتع بحياة حقيقية ولا يجد المعنى الحقيقى للحياة . إن ولاءه الأول وواجبه الأوحد لله . . قد يتمتع ببعض التكريم ، وقد ينال شيئاً من الولاء ؛ غير أن هذا الولاء وذلك التكريم بمقابلته بالولاء والإخلاص لله ، يذوى كالورقة التى يلفحها اللهب المشبوب ، فتذروها الرياح الأربع ، أو تلوث يد الممسك بها بالسواد .

ذلك ما كان يراه الرجل الإنجليزى العادى خلال هذه الحرب ، وهو قول نشر على الملأ . ثم بعد الحرب يتخذ شرع الله ظهرياً بالنسبة لنا فى الهند لأن قانون البشر — ١٢٠ ب و ١٣١ و ٥٠٥ و ١١٧ — يستعلى على شريعة الله ! . .

مما ينسب إلى المسيح أنه قال . . . (تقاطعه هيئة المحكمة وتقف معلنة وقف الاستماع الجلسة اليوم قبل إتمام الجملة) .

مولانا محمد على : لا بأس أيها السادة ، لقد أوقفتنى المحكمة عند « المسيح » وسأحدثكم غداً عن ذلك القول الذى يعزى إلى المسيح .

(وبذلك انتهت مرافعة مولانا محمد على فى يومها الأول[2]) .

« يتبع »

---

(١) (Mr. Britling Sees it Through)

(٢) آثرنا إغفال نشر بعض الفقر من الترجمة الخاصة بمناقشة المواد التى يستند إليها الاتهام مما لا نجد لنشره ضرورة .

التشريع الجنائى الإسلامى

للأستاذ عبد القادر عوده

أركان السرقة

الركن الأول : الأخذ خفية

(٣)

تعدد الآخذين : إذا اشترك فى السرقة اثنان فدخل أحدهما الحرز وبقى الثانى فى خارجه ، وناول الداخل للخارج المسروق من وراء الجدار أو من فتحة الباب أو من نقب الحائط ؛ فيرى أبو حنيفة أن الأخذ غير تام بالنسبة للداخل والخارج معاً : فأما بالنسبة للداخل فلأنه وإن كان قد أخرج المتاع بفعله من الحرز ومن حيازة المجنى عليه إلا أن المتاع لم يدخل فى حيازة الداخل وإنما دخل فى حيازة الخارج ، ومن ثم فالأخذ غير تام بالنسبة للداخل ، ورأى أبى حنيفة فى هذه المسألة تطبيق لنظرية اليد المعترضة التى سبق بيانها .

أما بالنسبة للخارج فيرى أبو حنيفة أن أخذه غير تام أيضا لأنه وإن أدخل المسروق فى حيازته إلا أنه لم يخرجه من حرزه ولا من حيازة المجنى عليه وشروط الأخذ التام أن يخرج السارق الشىء من حرزه ومن حيازة المجنى عليه فيدخله فى حيازته .

والأئمة الثلاثة ومعهم الشيعة الزيدية وأبو يوسف ومحمد صاحبا أبى حنيفة يرون أن الأخذ تام بالنسبة للداخل ، ويرون أن المتاع المسروق يدخل فى حيازة الداخل ولو أنه أعطاه لزميله الخارج ، لأنه أقام هذا الزميل مقامه فسلمه المسروقات . ولكنهم يرون ما يراه أبو حنيفة بالنسبة للخارج فلا يعتبرون أخذه تاما[١] .

---

(١) بدائع الصنائع ج ٧ ص ٦٥ — شرح فتح القدير ج ٤ ص ٢٤٣ — المهذب ج ٢ ص ٢٩٧ — أسنى المطالب ج ٤ ص ١٤٧ — مواهب الجليل ج ٦ ص ٣١٠ — شرح الزرقانى ج ٨ ص ١٠٤ — كشاف القناع ج ٤ ص ٨٠ — المغنى ج ١٠ ص ٢٩٩ — شرح الأزهار ج ٤ ص ٣٦٨ .

والمفروض فى المسألة السابقة أن الداخل أخرج يده بالمسروقات إلى خارج الحرز فتناولها زميله الخارج .

أما إذا أدخل الخارج يده فى الحرز فأخذ المتاع المسروق من يد زميله الموجود بداخل الحرز فيرى أبو حنيفة أن الأخذ لا يعتبر تاما بالنسبة لأيهما .

فأما الخارج فلأنه لم يدخل الحرز فيهتكه هتكا متكاملا وهذا تطبيق لنظرية الهتك المتكامل وقد سبق بيانها .

وأما الداخل فلأنه لم يخرج المسروق من الحرز .

ولكن الأئمة الثلاثة ومعهم الشيعة الزيدية وأبو يوسف صاحب أبى حنيفة يرون أن الأخذ يعتبر تاما بالنسبة للخارج لأنه أخرج المتاع المسروق من الحرز ومن حيازة المجنى عليه وأدخله فى حيازة نفسه ، ولأن ركن السرقة هو الأخذ وقد أخذ المسروق وليس ركن السرقة الدخول فى الحرز .



أما بالنسبة للداخل فيتفق رأى هؤلاء الفقهاء مع رأى أبى حنيفة على أن الأخذ لا يعتبر تاما بالنسبة له[1] .

وإذا وضع الداخل المسروقات فى وسط النقب فمد الخارج يده لأخذها بحيث اجتمعت أيديهما فى النقب بموضع لم يخرجه الداخل من الحرز ولم يخرجه الخارج من الحرز فتعاونا معاً على إخراجه وأخرجاه من الحرز فالأخذ تام بالنسبة لكليهما فى رأى مالك[2] ، وهو كذلك عند أحمد وأبى يوسف من فقهاء الحنفية[3] . ولكن الشافعى يرى أن الأخذ لا يعتبر تاما بالنسبة للخارج والداخل معا لأن الخارج لم يأخذه من داخل الحرز ولأن الداخل لم يخرجه من تمام الحرز[4] أما عند أبى حنيفة فلا يعتبر أحدهما آخذاً لأن الخارج لم يدخل الحرز ويهتكه هتكا متكاملا ولأن الداخل لم يخرجه من الحرز ، وعلى فرض أنه أخرجه فإن يداً أخرى اعترضت يده . ويرى الشيعة الزيدية فى هذه المسألة رأى مالك[5] .

وإن دخل أحد السارقين إلى الدار فربط المسروقات بحبل وكان طرف الحبل مع آخر فى الخارج فجرّ هذا الآخر المسروقات حتى أخرجها من الحرز فالأخذ تام من الخارج عند الشافعى وأحمد وأبى يوسف والشيعة الزيدية ، وليس تاما من الداخل ،

---

(١) المراجع السابقة . (٢) المدونة ج ١٦ ص ٧٣

(٣) كشاف القناع ج ٤ ص ٨٠ — شرح فتح القدير ج ٤ ص ٢٤٣

(٤) أسنى المطالب ج ٤ ص ١٤٦ (٥) شرح الأزهار ج ٤ ص ٣٦٨

أما عند أبي حنيفة فالأخذ ليس تاما لا من الداخل ولا من الخارج ولو أن الخارج أخرج المسروقات لأنه في إخراجها لم يهتك الحرز هتكا متكاملا ، ويرى مالك أن الاثنين آخذان وأخذهما تام لأن فعل الرابط مصاحب لفعل الجاذب حال الإخراج من الحرز[١] .

وإذا دخلا معا في الحرز فصعد أحدهما إلى سطح المنزل وجمع الثاني المتاع المسروق فربطه بحبل فجره من على السطح وألقى به إلى الخارج فكلاهما آخذ أخذاً تاما عند مالك وأبي حنيفة وأحمد ولا يعتبر الشافعي الأخذ تاما إلا بالنسبة لمن ألقاه في الخارج أما من لم يخرجه فأخذه غير تام[٢] .

والشافعي يسير في رأيه على القاعدة العامة التي تقضي باعتبار من يخرج الشيء من حرزه ومن حيازة المجني عليه ويدخله في حيازته آخذاً له أخذاً تاما . أما من اعتبروا الرابط مخرجا المتاع فقد اعتبروه مخرجا على أسس مختلفة ؛ فمالك يعتبره مخرجا لأن فعل الربط جاء مصاحبا لفعل الإخراج وهو يعتبر الشخصين مخرجين كما تعاونا على إخراج المسروق وتصاحب فعلاهما ، فمثلا في حالة ربط المسروق في حبل وجذبه يتعاون السارقان ويتصاحب فعلاهما بحيث أن فعل الداخل لا يجعله مستقلا بإخراج المتاع وفعل الخارج لا يجعله منفردا بالإخراج : أي أن جذب الحبل في ذاته لا يخرج المتاع وربط المتاع في الحبل لا يخرجه ولكن الإخراج يأتي نتيجة للفعلين معاً ولتصاحب الفعلين ، أما إذا كان فعل أحدهما يجعله منفردا بالإخراج فالقطع عليه وحده وعلى الثاني التعزير كما لو مد الداخل يده بالمتاع إلى خارج النقب فأخذه منه الخارج ، فالداخل هو الذي أخرج المتاع وفعله يجعله مستقلا بإخراجه ، ويأخذ الحنابلة وأبو يوسف من فقهاء الحنفية بنظرية التعاون على الإخراج واستصحاب أفعال المخرجين — وسنتكلم فيما بعد على نظرية الإعانة — وتأخذ الشيعة الزيدية بهذا الرأي ، على أن فيهم من يأخذ برأي الشافعي[٣] .

بطلان الحرز يمنع من تمام الأخذ : وإذا بطل الحرز قبل إخراج المسروقات منه فلا تتم شروط الأخذ خفية لأن شروط الإخراج من الحرز تنعدم وتكون السرقة

---

(١) المراجع السابقة وشرح الزرقاني ج ٨ ص ١٠٦

(٢) المدونة ج ١٦ ص ٧٣ — كشاف القناع ج ٤ ص ٨٠ — المغني ج ١٠ ص ٢٩٨ — شرح فتح القدير ج ٤ ص ٢٤٤ ، ٢٤٥ أسنى المطالب ج ٤ ص ١٣٨

(٣) شرح الزرقاني ثامن ص ١٠٦ — شرح فتح القدير ج ٤ ص ٢٤٤ — المغني ج ١٠ ص ٢٩٧ ، ٢٩٨ — كشاف القناع ج ٤ ص ٨٠ — شرح الأزهار ج ٤ ص ٣٦٦ .

سرقة مال غير محرز ولا قطع فيها ، وإنما فيها التعزير . ومثل ذلك أن يؤذن للسارق بدخول الحرز لأن الإذن يبطل الحرز فى حق المأذون له ، وكذلك تغيب الحارس عن الشىء المسروق فى حالة ما إذا كان المال محرزاً بحارس .

أما إذا أبطل الحرز بعد إخراج المسروقات فإن ذلك لا يؤثر على السرقة التى تمت بتمام شروط الأخذ خفية .

ويبطل الحرز عند الشافعى وأحمد والشيعة الزيدية بفتح الباب والنقب ، ولكنه لا يبطل بهما عند مالك وأبى حنيفة ، فإذا نقب شخص حرزاً أو فتح بابه ولم يسرق شيئاً فجاء آخر ودخل الحرز وسرق منه متاعا فلا قطع على أحدهما عند الشافعى وأحمد والشيعة الزيدية لأن الأول لم يأخذ شيئاً فلا يسأل عن السرقة وإنما يسأل عن إتلاف الحائط ولأن الثانى أخذ المتاع من غير حرز والسرقة من غير حرز لا قطع فيها ، أما مالك وأبو حنيفة فيريان أن الأخذ تام بالنسبة للثانى الذى دخل وأخذ المتاع لأن النقب لم يخرج المكان عن كونه حرزاً[1] .

ويرتب الحنابلة على القول بأن النقب يبطل الحرز أن الجانى لو نقب فى ليلة ولم يأخذ شيئاً فعلم المالك بهتك الحرز وأهمله ، ثم جاء الناقب فى ليلة تالية قبل إعادة الحرز فسرق ما فى المنزل أو جاء فى نفس الليلة بعد فترة كافية من إحداث النقب فسرق فإن الأخذ لا يعتبر تاما لأن السرقة من غير حرز .

وكذلك الشأن عند الحنابلة فى حالة الإخراج على دفعات ، فإذا نقب الجانى الحرز فأخرج مادون النصاب ثم دخل فأخرج ما يتم به النصاب فإن كان ذلك فى وقتين متباعدين أو ليلتين لم يجب القطع لأن كل واحدة منهما سرقة مفردة وكلاهما دون النصاب ، وكذلك الحال إن كانا فى ليلة واحدة وبينهما مدة طويلة ، أما إذا تقاربا فهما سرقة واحدة لبناء الفعلين أحدهما على الآخر ، وإذا بنى فعل أحد الشريكين على فعل شريكه فبناء فعل الواحد بعضه على بعض أولى[2] .

أما إذا علم المالك بهتك الحرز وأهمله فكل أخذ يعتبر مستقلا مهما تقاربت المدة بين الأخذين والأخذ بعد العلم أخذ من غير حرز[3] .

ويلاحظ فى هذا الباب أن الحرز عند الحنابلة لا يبطل بالنسبة لمحدث النقب إلا بعلم المالك أو باشتهار هتكه ، أما بالنسبة لغير الناقب فيبطل فى الحال دون حاجة لعلم المالك .

---

(١) شرح الأزهار ج ٤ ص ٣٧٠ ــ المغنى ج ١٠ ص ٢٩٩ ــ أسنى المطالب ج ٤ ص ١٤٧ شرح الزرقانى ج ٨ ص ١٠٩ شرح فتح القدير ج ٤ ص ٢٤٣

(٢) المغنى ج ١٠ ص ٢٦٢ (٣) كشاف القناع ج ٤ ص ٨١

ويرتب الشافعيون على القول بأن النقب يبطل الحرز أن الجانى لو نقب فى ليلة وسرق فى أخرى كان أخذه تاما موجباً للقطع إلا إذا كان النقب ظاهراً يراه الطارقون والمارة أوعلم به المالك فلم يعد الحرز(١) .

أما الشأن عندهم فى حالة الإخراج على دفعات فغير متفق عليه ، فإذا نقب شخص حرزا ثم أخرج منه نصابا على دفعات فبعضهم يرى الأخذ تاما ولو أن الإخراج على دفعات لأن بعض فعله يبنى على البعض الآخر ، وبعضهم يرى أن ما أخذه بعد الدفعة الأولى لايعتبر أخذاً تاما لأنه أخذ من حرز مهتوك ، وبعضهم يرى أن ما أخذ قبل اشتهار الهتك أوعلم المالك به يعتبر أخذاً تاما ، وما أخذ بعده لايعتبر كذلك(٢) .

ويتفق رأى الشيعة الزيدية فى هذه المسألة مع رأى الحنابلة(٣) .

ويلاحظ أن الحرز يبطل فى الحال عند الشافعيين والزيديين بالنسبة للغير ، أما بالنسبة للناقب فلا يبطل إلا على الوجه الذى سبق بيانه وطبقا للآراء المختلفة التى عرضناها .



والإخراج على دفعات يختلف حكمه عند مالك لأنه لايرى بطلان الحرز بالنقب ولا فتح الباب ، وعنده أن العبرة بقصد الجانى ، فإن قصد الجانى ابتداء أخذ المسروق ولكنه أخرجه على دفعات فالأفعال كلها سرقة واحدة ، ويستدل على قصد الجانى بإقراره أو بالقرائن سواء كان يستطيع أن يخرج المسروق كله مرة واحدة فلم يخرجه أوكان لايستطيع أن يخرجه إلا على دفعات ، أما إذا قصد الأخذ فى كل دفعة قصدا مستقلا فكل دفعة تعتبر سرقة مستقلة ، فإن أخرج فيها نصابا قطع والا لم يقطع(٤) .

ويرى أبو حنيفة فى حالة الإخراج على دفعات اعتبار كل دفعة وحدها فإن بلغت النصاب وحدها استحق المخرج القطع ، وإلا فلا ولو أن المخرج قصد أن لايخرج فى كل مرة نصابا كاملا تحايلا منه(٥) .

والإخراج من الحرز يختلف باختلاف نوع الحرز فإذا كان الحرز حرزاً بالمكان كالمنزل أو الدكان أو الجرن فيجب أن يخرج السارق بالسرقة من جميع الحرز حتى يعتبر الأخذ تاما ؛ فمن سرق متاعا من منزل يجب أن يخرج به إلى خارج المنزل فإن

---

(١) أسنى المطالب جـ ٤ ص ١٤٧

(٢) المهذب جـ ٢ ص ٢٩٥ ــ أسنى المطالب جـ ٤ ص ١٣٨ ــ نهاية المحتاج جـ ٧ ص ٤٢٠

(٣) شرح الأزهار جـ ٤ ص ٣٦٨

(٤) شرح الزرقانى جـ ٨ ص ٩٦

(٥) بدائع الصنائع جـ ٧ ص ٧٧ ، ٧٨

نقله من غرفة إلى أخرى فلا يعتبر الأخذ تاما مالم تكن الغرفة التى نقل إليها المتاع المسروق حرزا مستقلا عن الغرفة التى كان فيها ، وإذا نقله إلى ساحة المنزل فلا يعتبر الأخذ تاما إلا إذا كان المنزل مكونا من مساكن مختلفة والساحة مشتركة للجميع .

إما إذا كان الحرز حرزاً بالحافظ فإنه يكفى لاعتبار الأخذ تاما أن ينفصل بالمسروق عن مكانه أو ينفصل به عن الحارس ؛ فالنشال يعتبر أخذه تاما بمجرد أخذه النقود من جيب المجنى عليه وبمجرد شق الجيب وسقوط النقود منه ولو على الأرض .

فن القيافة سحر فى نظر الجهلاء

. . . وكان الرهبان يُعجبون بحذق العرب وإن كانوا يعزون اكتشافاتهم إلى السحر ، وإنى أنقل من بين العبارات الطريفة الكثيرة العبارة الغريبة الآتية التى وردت فى كتاب تاريخى لاتينى ، وذلك للدلالة على رأى أعداء العرب فى العرب . قال المؤرخ :

« اكتشف الكونت روبرت ويسكارد فى إحدى غزواته تمثالا على عمود رخامى متوج بإطار من نحاس منقورة فيه هذه الكلمة : « سأكون عند طلوع الشمس من اليوم الأول من شهر مايو صاحباً لتاج من ذهب » فلم يستطع أحد أن يدرك مغزاها . ولكنه كان عند الكونت روبرت أسير من عرب صِقِلّية عنده علم الجَفْر ، كجميع أبناء هاجر ، فأخبر الكونت هذا بأن لديه مفتاح ذلك اللغز وبأنه يقول له معنى تلك الكلمة إذا أُطلق ، فوعده الكونت بذلك ، فأشار ذلك العربى عليه بأن يحفر حين طلوع الشمس من اليوم الأول من شهر مايو المحل الذى يدل عليه منتهى ظل ذلك التمثال ، فصنع الكونت ما نصحه به فوجد كنزاً كبيراً . »

عن حضارة العرب للدكتور غوستاف لو بون

ترجمة الأستاذ عادل زعيتر

النظام الرأسمالي الجديد

للأستاذ السيد أبي الأعلى المودودي

نقلها إلى العربية السيد محمد عاصم الحداد

(٤)

أسباب الفساد :

٢ — ولقد كانت المغالاة هذه فى مبادئ الاقتصاد الحر غلطة عظيمة فى دور الانقلاب الصناعى ، خاصة لأن هذا الانقلاب قد جاء بتغيير أساسى فى طريق الإنتاج ، وهو أن الأعمال التى كانت القوى الإنسانية والحيوانية تقوم بها من قبل ، أصبحت تقوم بها الطاقة الآلية . وكانت نتيجة ذلك أن أصبح عشرة رجال ينجزون من العمل ما كان ينجزه ألوف منهم . فمن صميم طبيعة هذا الطريق للانتاج أنه يشغل قليلا من الناس ويعطل منهم العدد العديد .

فى مثل هذا الطريق كانت الدعوة المطلقة للملكية الفردية وحرية السعى والمطالبة بأن لا تتدخل الحكومة فى سعى الأفراد مبنية على الخطأ الفاحش من أساسها . كيف يمكن أن يباح لفرد أو طائفة من الأفراد أن ينشئوا بغتة معملا كبيراً لإنتاج نوع خاص من البضائع بمجرد أن بأيديهم من الوسائل والثراء ما يقدرون به على إنشائه ، ثم لا يأبهون فى قليل ولا كثير لما قد يعود به عملهم هذا من الآثار السيئة على معيشة ألوف من أهالى البلاد ممن كانوا ينتجون ذلك النوع الخاص من البضاعة نفسها فى بيوتهم ومتاجرهم ومعاملهم اليدوية الصغيرة ؟ وليس معنى ذلك أنه ما كان ينبغى أن تستعمل طاقة الآلة فى صناعة المنتجات والأدوات أصلا ، إنما المراد أنه ما كان ينبغى أن يؤذن باستعمال هذه القوة إذناً مشاعاً عاما ، وكان على الحكومة منذ أول الأمر أن تفكر فى تهيئة الأسباب — فى الوقت نفسه — لمعاش أولئك الذين جاءت هذه الصناعة الجديدة معطلة لهم ولشئون معاشهم . فلما لم يكن الأمر كذلك نشأت مسألة البطالة كمسألة مستقلة فى المجتمع الإنسانى على أوسع قدر لم يعهده التاريخ البشرى من قبل ، وذلك بسبب طرق الإنتاج الميكانيكى . ومن المعلوم أن البطالة ليست مسألة خاصة ، بل هى

الموجب الأكبر والسبب الأعظم لكثير من معضلات الحياة الإنسانية المادية والروحانية والخلقية والمدنية . ومن ههنا ينشأ السؤال : هل لفرد أو طائفة من الأفراد أن يتصرفوا فى ملكيتهم على وجه تتولد منه مثل هذه المعضلات العديدة فى الحياة الاجتماعية ؟ وكيف يسوغ لإنسان أن يحتج لهذا التصرف الظالم بأنه من حق الأفراد الممتازين الذين لا يزالون يسدون المعروف إلى المصلحة الجماعية ويخدمونها خدمة دائمة بأنفسهم ؟ أما الرأى فى مثل هذه التصرفات الفردية بأن على الحكومة القومية أن تأذن بها إذناً عاماً ثم تسكت عليها وتغمض عينها عن الآثار التى تصيب حياة الأمة كلها من جراء أعمال شرذمة قليلة من الناس ، فهو رأى لا يقوم على أساس معقول .

٣ — فلما عطل طريق الإنتاج هذا ألوفاً بل مئات الألوف من الناس واضطروا جميعاً أن يخرجوا من مدنهم وقراهم وحاراتهم وأزقتهم ويقصدوا هؤلاء التجار وأصحاب المعامل والمصانع يلتمسون منهم لأنفسهم الرزق بطريق الجعالة أو المشاهرة كانت النتيجة الحتمية لذلك أن اضطر الجوع هؤلاء أن يشتغلوا عند أولئك الرأسماليين على قلة ما عرضوا عليهم من الأجر . ثم إنهم ما وجدوا المعاش كلهم ، بل ظل عدد كبير من الرجال القادرين على العمل من غير عمل دائماً ، والذين سعد بهم الحظ ووجدوا لأنفسهم الشغل ما كانوا ليساوموا الرأسمالى ليقبل لهم أحسن الشروط ؛ فإنهم هم الذين جاءوا إليه يلتمسون منه الرزق ، وإنهم لو لم يقبلوا ما عرض عليهم الرأسمالى من الشروط لما وجدوا شيئاً يسدون به رمق حياتهم ، ولو أنهم أصروا على شروطهم لوجد الرأسمالى ألوفاً غيرهم يتهافتون على أبوابه ملتمسين منه العمل يتنافسون فى الوصول إليه على شروطه . وهكذا ثبت الخطأ فى ما جاءت به الطبقة « البورجوازية » من استدلال فى تأييد مبدئهم القائل بأن الأجور العادلة المتزنة تستقيم بنفسها فى المنافسة العامة بما يكون بين الأجير والمستأجر من التفاعل والأخذ والرد ؛ لأن المنافسة فى هذه المعاملة كان يفقدها شرط العموم ، وإنما كانت صورة المعاملة هناك أن استأثر الرجل الواحد برزق ألوف من عباد الله واحتجزه لنفسه من دونهم ، ولما جاءوا إليه يتضورون من الجوع ، أبى أن يعطى العمل إلا واحداً من عشرة أو عشرين منهم ، فالظاهر فى مثل هذه الأحوال أن القوة — قوة المساومة والبت فى الأمر — تجمعت كلها عند رجل واحد . وليس فى أحد من هؤلاء الألوف من ملتمسى الرزق القدرة على أن يرغم هذا الرجل الواحد المستبد على قبول شروطه . فمن أجل ذلك كلما نمت وانتشرت الرأسمالية فى دور الانقلاب الصناعى هذا عم فى المجتمع الفقر والضيق والعسرة على ما كان فيه من البطالة . والذين قصدوا إلى مراكز الصناعة والتجارة الكبيرة واجتمعوا فيها ابتغاء

للكسب والأجرة والمشاهرة وجدوا السبل ضيقة فى وجوههم واضطروا أن يرضوا بالعمل المرهق ساعات طوالاً بالأجر الزهيدة . وأخذوا يعملون فى المعامل والمصانع كالأنعام ، ويقضون أيام حياتهم فى بيوت مظلمة ضيقة تشبه مرابض الماشية ؛ فساءت صحتهم ، وانحطت عقلياتهم واضمحلت أخلاقهم . وقد عملت فيهم يد الأثرة تأثيراً فاحشاً حتى زالت المواساة والمودة من قلوب الآباء والأبناء والإخوان وثقل الأولاد على الآباء والنساء على الرجال ، حتى ما بقيت ناحية من نواحى الحياة سليمة من الآثار السيئة لهذا الاقتصاد الحر الخاطىء المتطرف .

٤ — وزد على كل ذلك أن هؤلاء البورجوازية الذين كانوا أكبر دعاة إلى الديمقراطية والتسامح والحرية والذين جاهدوا جهاداً طويلا وجادلوا جدالا عنيفاً فى نيل حق التصويت لأنفسهم بإزاء ملاك الأراضى ، لم يرضوا لينال حق التصويت أولئك الملايين من العامة الذين صاروا هم أولياء رزقهم ومالكى ناصية معاشهم ، وكانوا يرون لأنفسهم حقاً فى أن يحددوا أسعار البضائع ومشاهرات العمال وأجورهم ، بل كان هؤلاء البورجوازية يصرون على أن من حقهم أن يعطلوا ألوفاً من العمال دفعة واحدة بأن يغلقوا دونهم أبواب مصانعهم إذا شاءوا ويضطروهم بالحاجة إلى أن يرضوا بالعمل فى مصانعهم على الأجور القليلة والمشاهرات الزهيدة ، ولكنهم ما كانوا ليسلموا للعمال بحقهم فى الإضراب عن العمل والمطالبة برفع الأجور والمشاهرات . وكذلك كان هؤلاء البورجوازية لا يرون بأساً فى أن يعزلوا ويعطلوا عن العمل رجلا اشتغل فى معملهم أو متجرهم وما زال فى خدمتهم حتى أدركه من الهرم أو المرض ما لم يعد بعده قادراً على العمل ؛ ولكن صراخ هذا العاجز الهرم المبعد عن العمل : إنى قد أفنيت شبابى وقوتى فى ترقيـة تجارتك أو صناعتك ، فمن لى الآن آوى إليه وأستجديه ما يقوم بأود حياتى ؛ فما هذا الصراخ فى سمع رجل من البورجوازية إلا كصيحة فى الصحراء . فأنت ترى أن البورجوازية نسوا ههنا تلك الحجة التى كانوا يستدلون بها على أن المصلحة الفردية هى الدافع الصحيح الوحيد إلى العمل . نعم ! إنهم لم يزالوا يذكرون عن أنفسهم أنه إن كانت لهم فرص المنفعة واسعة غير محدودة ، جاءوا بالعمل الكثير وتمت على أيديهم الخدمة للسعادة والرفاهية الاجتماعية بنفسها ، ولكنهم نسوا عن عمالهم والمشتغلين فى مصانعهم أنه من كانت منفعته ضيقة ، لا محدودة فحسب ، وكان حاله مفعما باليأس ومستقبله مظلماً ، فما له أن يرغب فى عمله ويشتغل به عن طيب خاطر ويجهد فيه نفسه وقوته .

٥ — وعلى ذلك فقد تنكب هؤلاء طرق التجارة والصناعة الفطرية المتزنة ، واخترعوا لمصلحتهم الذاتية طرقا تخالف المصلحة الجماعية وتضادها فى صميمها ، وترتفع بها الأسعار ارتفاعا متصنعاً فى السوق ، ويقف بها إنتاج الثروة ويدب دبيب البطء فى سير الرقى .

فمن هذه الطرق أنهم يشترون بقوة ثرائهم أدوات الحاجة والبضائع الاستهلاكية ويدخرونها عندهم ادخاراً فاحشاً حتى تكاد تنعدم من السوق فيكثر لها الطلب طبعاً ؛ وهكذا يمكنهم أن يرفعوا الأسعار فى السوق على وجه غير طبيعى .

ومنها أنه يتوسط بين منتجى البضائع ومستهلكيها الحقيقين مئات من الناس يتبايعونها فيما بينهم واحداً بعد واحد معتمدين على أموالهم المدخرة فى المصارف وما يملكون من وسائل المواصلة السريعة كالتليفون واللاسلكى ، حتى ترتفع بهذه العملية أثمانها بما ينال كل واحد منهم عليها من المنافع واحداً إثر آخر ، من غير أن يقوموا بخدمة فى إنتاج هذه البضائع أو حملها أو إصلاح شأنها حتى يكون لهم استحقاق مشروع فى نصيب من المنافع .



ومنها أنهم يحرقون البضائع المنتجة ويقذفونها فى البحر مخافة أن تصل منها إلى السوق كمية كبيرة فتصير سبباً فى نزول أسعارها .

ومنها أنهم ينتجون بفضل أموالهم الوافرة وثرواتهم المتجمعة شيئا من أنواع الكماليات للترف والتنعم ثم يرغبون الناس فيه وينشئون له الطلب فيهم بفضل الدعايات والإعلانات وتوزيعه فيهم مجانا إلى غير ذلك من الحيل المتنوعة ويجعلونه من حاجات أولئك الفقراء والأوساط من الناس الذين لا يكادون يقدرون على القيام حتى بضروريات حياتهم على الوجه الصحيح .

ومنها أنهم لا ينفقون أموالهم ولا يصرفون جهودهم فى إعداد ما يفتقر إليه الناس أشد الافتقار فى واقع الأمر ، ويبذلون أموالهم وجهودهم كلها فى إنتاج البضائع والمنتجات التى لا حاجة للناس إليها ؛ وما ذلك إلا لأن النوع الأخير منها أجلب للربح والمنفعة اليهم من النوع الأول .

ومنها أنه يحاول بعض الأفراد أو الطبقات تحلية منتجاتهم المضرة للصحة ، الهدامة للأخلاق ، القاضية على المدنية والثقافة ، يحاولون تحليتها بفضل أموالهم فى أعين الناس ويرغبونهم فيها بإنعاش عواطفهم الدنيئة ويسلبونهم نصيبا وافراً من دخلهم القليل باللعب بعقولهم مع أن هؤلاء الدهماء لا يكاد دخلهم يكفى ليسدوا به رمق حياتهم وأهلهم .

وأضر هذه الطرق وأشدها خطراً أنهم يغيرون على حقوق الشعوب المستضعفة

لأجل مصالحهم التجارية والمالية ، ويقسمون العالم إلى مختلف دوائر النفوذ والسلطة ويتقدم كبار المتمولين والصناع والتجار فى كل أمة يتخذون شعوبهم آلة لقضاء مآربهم وأغراضهم المتطرفة المتزايدة ويلقونهم فى تناحر مستمر لا تكاد تنحل عقدته فى ميدان الحرب ولا فى مؤتمرات الصلح .

فهل ترى أن بهذه الطرق تتم الخدمة المصلحة الجماعية بنفسها حقاً إن ترك الأفراد وشأنهم يعملون لمصالحهم الذاتية كيفما يشاءون ؟ كلا ، بل الحق أنهم أثبتوا بأعمالهم هذه أن الأثرة الحرة قلما تكون عادلة ، ولا سيما إذا ارتكزت فى يدها القوة الاقتصادية والسياسية وكانت هى الواضعة للقانون ؛ ففى مثل تلك الظروف لا تبذل جهودهم فى الغالب فى خدمة المصلحة الجماعية ، بل بالعكس تصرف فى طرق وسبل تؤثر المصلحة الفردية على المصلحة الجماعية ، ولا تبالى بها أصلا .

« للبحث بقية »



دعاة الغرب

أرى الدنيا تضلّل تابعيها ولا تجزيهمو إلاّ خسارا
بريق الغرب أغراهم سناه فساروا خلفه أيّان سارا
يظنون الحضارة كل رأى يجللّهم به الإفرنج عارا
ومن يَبْنِ القصور على هشيم فليس يرى لها إلا انهيارا
عجبت لمعشر ضلّوا سبيلا ونبراس الهدى فيهم أنارا
فهل أعمتهم الشهوات عنه وألقت فوق أعينهم دثارا ؟ !
تقفّوْا كل تيّار كذوب وكل مشرِّع فى الحكم جارا
ومن تبع السراب يريد ماء يخِبْ فألاّ ويلق به بوارا

عفيفى محمود

فى الإسماعيلية

للإمام الشهيد حسن البنا

« فى هدوء الإسماعيلية الجميل ، ومن أبنائها المباركين البررة ، تكونت أول نواة لتشكيلات الإخوان المسلمين وشعبهم »
حسن البنا

(٢)

عقيدة الفطرة :

ثم هو فى أثناء ذلك كله ، وخلال كل مجلس من مجالسه ، يطرق باب العقيدة الصحيحة فينميها ويقويها ويثبتها بما يورد من آيات الكتاب الحكيم ، وأحاديث الرسول العظيم صلى الله عليه وسلم ، وسير الصالحين ، ومسالك المؤمنين الموقنين .

ولا يعمد كذلك إلى نظريات فلسفية ، أو أقيسة منطقية ، وإنما يلفت الأنظار إلى عظمة البارى فى كونه ، وإلى جلال صفاته بالنظر فى مخلوقاته ، ويذكر بالآخرة فى أسلوب وعظى تذكيرى لا يعدو جلال القرآن الكريم فى هذه المعانى كلها ، ثم لا يحاول هدم عقيدة فاسدة إلا بعد بناء عقيدة صالحة ؛ وما أسهل الهدم بعد البناء وأشقه قبل ذلك ، وهى نظرة دقيقة ما أكثر ما تغيب عن إدراك المصلحين الواعظين .

فى زاوية الحاج مصطفى بالعراقية

كانت هذه الزاوية الثانية هى الزاوية التى بناها الحاج مصطفى تقربا إلى الله تبارك وتعالى ، وفيها اجتمع هذا النفر من طلاب العلم يتدارسون آيات الله والحكمة فى أخوة وصفاء تام .

ولم يمض وقت طويل حتى ذاع نبأ هذا الدرس ، الذى كان يستغرق ما بين المغرب والعشاء ، وبعده يخرج إلى درس القهاوى ، حتى قصد إليه كثير من الناس ومنهم هواة الخلاف وأحلاس الجدل وبقايا الفتنة الأولى .

وفى إحدى الليالى شعرت بروح غريبة : روح تحفز وفرقة ، ورأيت المستمعين

قد تميز بعضهم من بعض ، حتى فى الأماكن ، ولم أكد أبدأ حتى فوجئت بسؤال : ما رأى الأستاذ فى مسألة التوسل ؟ فقلت له : « يا أخى أظنك لا تريد أن تسألنى عن هذه المسألة وحدها ، ولكنك تريد أن تسألنى كذلك فى الصلاة والسلام بعد الأذان، وفى قراءة سورة الكهف يوم الجمعة ، وفى لفظ السيادة للرسول صلى الله عليه وسلم فى التشهد ، وفى أبوى النبى صلى الله عليه وسلم وأين مقرهما ، وفى قراءة القرآن وهل يصل ثوابها إلى الميت أولا يصل ، وفى هذه الحلقات التى يقيمها أهل الطريق وهل هى معصية أو قربة إلى الله » . وأخذت أسرد له مسائل الخلاف جميعا ، التى كانت مثار فتنة سابقة وخلاف شديد فيما بينهم فاستغرب الرجل ، وقال نعم أريد الجواب على هذا كله . فقلت له يا أخى إنى لست بعالم ، ولكنى رجل مدرس مدنى أحفظ بعض الآيات وبعض الأحاديث النبوية الشريفة وبعض الأحكام الدينية من المطالعة فى الكتب ، وأتطوع بتدريسها للناس فإذا خرجت بى عن هذا النطاق فقد أحرجتنى ، ومن قال لا أدرى فقد أفتى ، فإذا أعجبك ما أقول ورأيت فيه خيرا ، فاسمع مشكورا ، وإذا أردت التوسع فى المعرفة ، فسل غيرى من العلماء والفضلاء المختصين ، فهم يستطيعون إفتاءك فيما تريد ، وأما أنا فهذا مبلغ علمى «ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها». فأخذ الرجل بهذا القول ولم يجد جوابا ، وأخذت عليه بهذا الأسلوب سبيل الاسترسال ، وارتاح الحاضرون أو معظمهم إلى هـذا التخلص ؛ ولكنى لم أرد أن تضيع الفرصة فالتفت إليهم وقلت لهم : « يا إخوانى أنا أعلم تماما أن هذا الأخ السائل، وأن الكثير من حضراتكم ، ما كان يريد من وراء هذا السؤال إلا أن يعرف هذا المدرس الجديد من أى حزب هو ؟ أمن حزب الشيخ موسى ، أو من حزب الشيخ عبد السميع ؟ وهذه المعرفة لا تفيدكم شيئاً وقد قضيتم فى جو الفتنة ثمانى سنوات وفيها الكفاية . وهذه المسائل اختلف فيها المسلمون مئات السنين ولا زالوا مختلفين ، والله تبارك وتعالى يرضى منا بالحب والوحدة ويكره منا الخلاف والفرقة ، فأرجو أن تعاهدوا الله أن تدعوا هذه الأمور الآن وتجتهدوا فى أن نتعلم أصول الدين وقواعده ، ونعمل بأخلاقه وفضائله العامة وإرشاداته المجمع عليها ، ونؤدى الفرائض والسنن وندع التكلف والتعمق حتى تصفو النفوس ويكون غرضنا جميعا معرفة الحق لا مجرد الانتصار للرأى ؛ وحينئذ نتدارس هذه الشئون كلها معاً فى ظل الحب والثقة والوحدة والإخلاص ، وأرجوا أن تتقبلوا منى هذا الرأى ويكون عهداً فيما بيننا على ذلك » . وقد كان ، ولم نخرج من الدرس إلا ونحن متعاهدون على أن تكون وجهتنا التعاون وخدمة



الإسلام الحنيف ، والعمل له يداً واحدة ، وطرح معانى الخلاف ، واحتفاظ كل برأيه فيها حتى يقضى الله أمراً كان مفعولا . واستمر درس الزاوية بعد ذلك بعيداً عن الجو الخلافى فعلا بتوفيق الله ، وتخيرت بعد ذلك فى كل موضوع معنى من معانى الأخوة بين المؤمنين أجعله موضوع الحديث أولا تثبيتاً لحق الإخاء فى النفوس ، كما أختار معنى من معانى الخلافيات ، التى لم تكن محل جدل بينهم والتى هى موضع احترام الجميع وتقدير الجميع : أطرقة وأتخذ منه مثلا لتسامح السلف الصالح رضوان الله عليهم ولوجوب التسامح واحترام الآراء الخلافية فيما بيننا .

مثل :

وأذكر أنى ضربت لهم مثلا عملياً فقلت لهم : أيكم حنفى المذهب ؟ فجاءنى أحدهم ، فقلت : وأيكم شافعى المذهب ، فتقدم آخر ، فقلت لهم سأصلى إماماً بهذين الأخوين فكيف تصنع فى قراءة الفاتحة أيها الحنفى ؟ فقال أسكت ولا أقرأ ، فقلت وأنت أيها الشافعى ما تصنع ؟ فقال أقرأ ولا بد . فقلت : وإذا انتهينا من الصلاة فما رأيك أيها الشافعى فى صلاة أخيك الحنفى ؟ فقال باطلة لأنه لم يقرأ الفاتحة وهى ركن من أركان الصلاة . فقلت وما رأيك أنت أيها الحنفى فى عمل أخيك الشافعى ؟ فقال لقد أتى بمكروه تحريماً فإن قراءة الفاتحة للمأموم مكروهة تحريماً . فقلت هل ينكر أحدكما على الآخر ؟ فقالا : لا . فقلت للمجتمعين : هل تنكرون على أحدهما ؟ فقالوا : لا . فقلت : «ياسبحان الله ! يسعكم السكوت فى مثل هذا وهو أمر بطلان للصلاة أو صحة ، ولا يسعكم أن تتسامحوا مع المصلى إذا قال فى التشهد اللهم صلى على محمد أو اللهم صلى على سيدنا محمد ، وتجعلون من ذلك خلافا تقوم له الدنيا وتقعد » وكان لهذا الأسلوب أثره فأخذوا يعيدون النظر فى موقف بعضهم من بعض ، وعلموا أن دين الله أوسع وأيسر من أن يتحكم فيه عقل فرد أو جماعة ، وإنما مرد كل شىء إلى الله ورسوله وجماعة المسلمين وإمامهم إن كان لهم جماعة وإمام .



مجتمع الإسماعيلية

قضيت على هذا الأسلوب أكثر من نصف العام الأول الدراسى بالإسماعيلية : أعنى ما بقى من سنة ١٩٢٧ ثم أوائل سنة ١٩٢٨ الميلادية ، وقد كان هدفى فى هذه الفترة دراسة الناس والأوضاع دراسة دقيقة ، ومعرفة عوامل التأثير فى هذا المجتمع

الجديد . وقد عرفت أن هذه العوامل أربعة : العلماء أولا ، وشيوخ الطريق ثانيا ، والأعيان ثالثا ، والأندية رابعا .

فأما العلماء فقد سلكت معهم مسلك الصداقة والتوقير والإجلال الكامل وحرصت على ألا أتقدم أحداً منهم فى درس أومحاضرة أو خطبة ، وإذا كنت أدرس وقدم أحدهم تنحيت له وقدمته إلى الناس . وكان لهذا الأسلوب أثره فى أنفسهم فظفرت منهم بالكلمة الطيبه .

ومن النكات اللطيفة أن أحد قدامى المشايخ الذين قضوا بالأزهر الشريف سنوات طوالا على نظامه الأول تقريباً — وكان من المولعين بالجدل والنقاش ومحاولة إحراج الوعاظ والعلماء والمدرسين بطرح مسائل غير مطروقة ، والتعرض لمعان وموضوعات مما تضمنته الحواشى القديمة والتقارير الدقيقة العميقة — حاول إحراجى ذات يوم وأنا أقص قصة إبراهيم الخليل عليه السلام على الناس فسألنى عن اسم أبيه ، فابتسمت وقلت له : « يا مولانا الشيخ عبد السلام — رحمه الله — قالوا : إن اسمه « تارخ » وإن آزر عمه ، والقرآن يقول إن آزر أبوه ولا مانع من أن يكون عمه لاستخدام ذلك فى لغة العرب ، وقد قال بعض المفسرين إن آزر اسم للصنم لا لأبيه ولا لعمه وإن التقدير : « إذ قال إبرهيم لأبيه اترك آزر أتتخذ أصناماً آلهة » . ونطقت بكلمة تارخ بكسر الراء ، ولما كان هذا البيان شافياً لأمثالى رغم إيجازه ، لم يشأ أن يدع الموقف يمر فى هدوء فقال : ولكن اسم أبيه تارُخ بضم الراء لا بكسرها . فقلت فليكن وهو اسم أعجمى على كل حال وضبطه الصحيح يتوقف على معرفة هذه اللغة ، والمهم العظة والعبرة . وأراد هذا الشيخ رحمه الله أن يتخذ معى هـذا الأسلوب فى كل درس ؛ ومعنى هذا أن يهرب العامة والمستمعون من هذا الجدل العقيم ويدعون للشيخين هذا الميدان الذى لا خير فيه ؛ فكرت فى علاج الشيخ فدعوته إلى المنزل وأكرمته وقدمت له كتابين فى الفقه والتصوف هدية وطمأنته على أننى مستعد لهاداته بما شاء من الكتب ، فسر الرجل سروراً عظيما وواظب على حضور الدرس والإصغاء إليه إصغاء تاماً ودعوة الناس إليه فى إلحاح ، فقلت فى نفسى صدق رسول الله : « تهادوا تحابوا » . واستمرت هذه الطريقة ناجحة إلى حين ؛ وللنفوس تقلباتها .

وأما رجال الطرق فقد كانوا كثرة كثيرة فى هذا البلد الطيبة قلوب أهله ، وكان يتردد عليهم الكثير من الشيوخ ؛ ولا أنسى مجالس الشيخ حسن عبد الله المسلمى ، والشيخ عبود الشاذلى ، والشيخ عبد الوهاب الدندراوى وغيرهم . وفى هذه الفترة

زار الإسماعيلية الشيخ عبد الرحمن سعد وهو من خلفاء الشيخ الحصافى ، فهو أخونا فى الطريق حينذاك ، وكان يدرس ويعظ ، ويرأس بعد ذلك حلقة الذكر ، فقصد المسجد ولم أكن أعرفه ولا يعرفنى ودرّس ووعظ ؛ ثم دعا الناس إلى الذكر ، فرأيت أسلوب الطريقة الحصافية وتعرفت إليه أخيراً . ولكن الحق أنى لم أكن متحمساً لنشر الدعوة على أنها طريق خاص لأسباب أهمها : أننى لا أريد الدخول فى خصومة مع أبناء الطرق الأخرى ، وأننى لا أريد أن تكون محصورة فى نفر من المسلمين ، ولا فى ناحية من نواحى الإصلاح الإسلامى ؛ولكنى حاولت جاهداً أن تكون دعوة عامة قوامها العلم والتربية والجهاد ، وهى أركان الدعوة الإسلامية الجامعة (ومن أراد بعد ذلك تربية خاصة فهو وما يختار لنفسه) ، ولكنى مع هذا أكرمت الشيخ عبد الرحمن وأحسنت استقباله ، ودعوت الراغبين فى الطريق إلى الأخذ عنه والاستماع إليه حتى سافر . كما تعرفت فى هذه الفترة إلى السيد محمد الحافظ التيجانى الذى جاء إلى الإسماعيلية خصيصاً ليحذر من دسائس البهائيين ومكايدهم ، وقد كان لهم فى هذا الوقت دعوة ودعاة فى هذه النواحى ، تقوى وتشتد وتنتشر ، فأبلى البلاء الحسن فى تحذير الناس منهم ، وكشف خدعهم وأباطيلهم والرد عليهم ، وقد أعجبت بما رأيته من علمه وفضله ودينه وغيرته وناقشته طويلا — وكنا نسهر ليالى عدة — فيما يأخذ الناس على التيجانية من غلو ومبالغة ومخالفات ؛ فكان يؤول ما يحتمل التأويل ؛ وينفى ما يصطدم بالعقيدة الإسلامية الصافية ويبرأ منه أشد البراءة . كانت طريقتى مع هؤلاء الشيوخ الكثيرين الذين يزورون الإسماعيلية أن أتأدب معهم بأدب الطريق وأخاطبهم بلسانها ، ثم إذا خلونا معاً شرحت لكل منهم حال المسلمين وجهلهم بأوليات دينهم ، وتفكك رابطتهم وغفلتهم عن مصالحهم الدينية والدنيوية ، وما يهددهم من أخطار جسام فى كيانهم الدينى بزحف الإلحاد والإباحية على معسكراتهم ، وفى كيانهم الدنيوى بغلبة الأجانب على خيرات بلادهم ، وكان المعسكر غرب الإسماعيلية ومكاتب شركة قناة السويس فى شرقها مدداً لا ينضب من الأمثلة على ذلك ، ثم أذكرهم بالتبعة التى على كاهلهم لهؤلاء الأتباع الذى وثقوا بهم ، وأسلموهم قيادهم ، ليدلوهم على الله ويرشدوهم إلى الخير ، ثم أطلب إليهم فى النهاية أن يوجهوا كل جهودهم إلى إثارة أذهان هؤلاء الناس بالعلم والمعرفة ، وإلى التربية الإسلامية الصحيحة ، وجمع كلمتهم على عزة الإسلام ، والعمل على إعادة مجده .

ولا زلت أذكر مقابلة قابلت فيها الشيخ عبد الوهاب الدندراوى رحمه الله ،

فرأيت شاباً في سني تقريباً ، في العشرين أو الحادية والعشرين من عمره ، وفيه صلاح وخير ، فجلست معه موقراً إياه كل التوقير ، حتى إذا انتهى المجلس العام طلبت أن أخلو به في حجرة خاصة ، ولما دخلنا خلعت طربوشي فوضعته على كرسي وخلعت عمامته ووضعتها إلى جوار الطربوش ، وهو يستغرب هذا العمل الذي لم يفاجأ به من أحد من قبل ، وقلت له : « يا أخي لا تنتقدني في هذا العمل فإنما فعلت ذلك لأقضيَ على الفارق الشكلي بيني وبينك ، ولأخاطب فيك الشاب المسلم عبد الوهاب الدندراوي فقط ، أما الشيخ عبد الوهاب الدندراوي فقد تركناه في المجلس العام . . . إنك يا أخي في العشرين من عمرك ، وكلك والحمد لله شبابٌ وقوة وحماسة . . . ها أنت ذا ترى هذه الجموع التي جمعها الله عليك ، تقضي الليل في ذكر ونشيد ، ثم لا شيء بعد ذلك ، والكثير منهم شأنه من شأن غيره من المسلمين : جهالة بالدين ، وبعد عن الشعور بعزة الإسلام وكرامته ؛ فهل ترضى هذا ؟ » فقال : « وماذا أصنع ؟ » قلت : « العلم والتنظيم والرقابة ، وتربيتهم على سيرة سلفنا الصالح ، وتاريخ أبطالنا المجاهدين . . . » وكان كلام طويل بيننا حول هذه المعاني ، تأثر به الشيخ تأثراً عميقاً ، وتعاهدنا معاً على العمل : أخوين لخدمة الإسلام العام ، وتركيز دعوته في النفوس كلٌ في ميدانه ومحيطه . وأشهد أنه ما جاء الإسماعيلية بعد ذلك إلا بدأ بزيارتي وتطميني بأنه على العهد مقيم ، حتى توفي رحمه الله وجزاه عن الوفاء خيراً .

تنبيـــه ورجاء

ينتهي بصدور هذا العدد اشتراك حضرات الفضلاء المشتركين لنصف عام ، ونرجو ممن يرغب من حضراتهم تجديد اشتراكه أن يبادر إلى ذلك مشكوراً ، وأن يرسل قيمة الاشتراك إلى الإدارة قبل صدور العدد السادس بوقت كاف حتى يعمل حسابه عند طبع العدد بإذن الله .

الإدارة

السيد جمال الدين الأفغانى
دعوته وعصره

للدكتور محمد ضياء الدين الريس

أستاذ التاريخ الإسلامى بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة

[إنا نكتب هذا المقال هدية وفاء للمصلح الكبير بمناسبة حديثنا عنه فى الثورة العرابية فى العدد الثالث ، وبمناسبة الذكرى السادسة والخمسين لوفاته فى شهر مارس الحالى ، وكقطعة من تاريخنا الحديث يجب أن نتذكرها دائماً « وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين »]

سواء أصح الحديث — أم لم يصح — الذى ورد فيه الإخبار بأن الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها — فليس من شأننا أن نبحث هذا الموضوع ، ونحن نتركه لرجال الحديث — فإن من الثابت عندنا — أى من وجهة النظر التاريخية — وهى حقيقة قد أصبح التسليم بها عاماً أو شبه عام ، أنه فى السنوات التى أحاطت بملتقى المائتين الثالثة عشرة والرابعة عشرة من التاريخ الهجرى ، ظهرت فى أفق العالم الإسلامى شخصية فذة قديرة كان لها — بما بذلت من جهد ، وألقت من تعاليم ، وبثت من روح — مثل هذا الأثر : فى أنها جددت للأمة أمر دينها ، وأحيت ما خمد من عزائمها ، وأعادت إليها ثقتها بنفسها . تلك هى شخصية السيد جمال الدين الأفغانى الحسينى ، العالم الفيلسوف الصوفى السياسى ، المجاهد ، المربى والزعيم .

لسنا نريد هنا أن نسرد التفاصيل التى احتوتها حياته ، ولا أن نكتب تاريخاً جامعاً له فهذا — على الأقل — ما لا يتسع له المقام . ولكنا نريد فقط أن نشير إلى الحقائق البارزة فى حياته تلك ، ونعنى بصفة خاصة بأمرين : الطبيعة السياسية العامة للعصر الذى عاش فيه ، والمبادىء التى تكونت منها دعوته ؛ وفى ضوء هذا كله يتسنى لنا أن نحدد مكانته فى التاريخ الإسلامى الحديث .

ولد السيد جمال الدين — كما اتفقت على ذلك روايات من ترجموا له — فى عام

١٢٥٤ هـ (١٨٣٩ م) بقرية أسعد أباد ، على مقربة من « كابل » عاصمة أفغانستان ، من بيت علم وفضل ينتهى نسبه إلى الإمام الترمذى المحدث المشهور ، وفى عشيرة قوية تعتز بمكانتها وجاهها ، ولذا كان الساسة والأمراء يخطبون ودها أو يضطهدونها . وعنى والده بتربيته وتثقيفه ، فتلقى فى « كابل » بعد أن انتقلت إليها أسرته ، كل علوم الثقافة الإسلامية : من فقه ، وتصوف ، وحكمة ، وكلام ، وآداب ، ودرس اللغة العربية أيضاً ، ثم درس بالهند أيضاً الرياضيات وجانباً من العلوم الحديثة . ولم يكن المهم أنه درس تلك العلوم ، فكم من الناس درسوها غيره ؛ ولكن الله سبحانه وهبه مواهب خاصة فكان جمال الدين فى الحقيقة « عبقرية » من العبقريات النادرة التى لا تظهر إلا قليلا فى التاريخ . ومن أهم ما ساعد على إنضاج هذه العبقرية ، وإبلاغها حد الإثمار تربيته الصوفية . وإلى هذه التربية يرجع كثير من الأسرار التى تميزت بها حياة جمال الدين ، وقوة تأثيره ونجاح مجهوداته ، وعظم نفع الأعمال التى قام بها . بل إن هذه الصوفية الصادقة المخلصة السامية هى المفتاح الأول لشخصيته — بالرغم من غلبة الناحية السياسية أو العلمية عليه — وقد غفل أكثر المؤرخين عن الاهتداء إلى هذا السر أو التنويه به .



واشتغل جمال الدين بالسياسة منذ كان شاباً فى العقد الثالث من العمر ، واضطلع بمهام كبيرة فى الدولة . فبعد تقلده بعض الوظائف فى الحكومة اتصل بالأمير محمد أعظم بن أمير الأفغان الكبير « دوست محمد خان » وكانت سياسة الأفغان فى أواسط القرن الماضى سياسة نشيطة ، كثيرة التقلبات حافلة بالأحداث ، نتيجة نشاط السياسات الاستعمارية وما يصحبها من الدسائس ، التى كانت تدبرها الدولتان المتنافستان : انجلترا التى كانت تملك امبراطورية الهند شرقى أفغانستان ، وروسيا القيصرية التى كانت تواصل الزحف والاستيلاء على الأقطار الإسلامية فى أواسط آسيا . وقد نجحت الدسائس فى أن فرّقت بين أولاد الأمير محمد خان ، فعقب وفاته انقسموا وانقسمت البلاد معهم شيعاً وأحزاباً ، ووقعت بينهم الحروب . ورأى جمال الدين أن يؤيد « محمد أعظم » ، ووثق هذا به فجعله وزيراً له أو وزيره الأول ، واعتمد على نصائحه واشتركا معاً فى تدبير الأمور . واكتسب بذلك جمال الدين — وهو لا يزال شاباً يافعاً — خبرة عملية ، وأتيحت له الفرصة ليطلع على حقيقة نوايا الاستعمار الأوروبى وخباياه ، وتآمره على إضعاف قوى البلاد الإسلامية تمهيداً لتدميرها ، مما كان له أبلغ الأثر فى تكوين آرائه وتحديد اتجاهاته ، وإثارة وجدانه . ثم انتهت الحوادث بأن تغلب أحد أبناء الأمير ، وهو « شير على » الذى كان مؤيداً من الإنجليز وممداً بأموالهم ، على أخيه

الأمير « محمد أعظم » ، فزالت دولته ، وحينئذ اضطر جمال الدين إلى مغادرة بلاده — ربما على كره منه ، ولم يكن مقدراً له أن يعود إليها مرة أخرى — ولكن هذه الهجرة كانت خيراً وبركة على العالم الإسلامى كله ، كما سيأتى لنا بيانه .

كان هذا العصر الذى عاش فيه جمال الدين عصر ازدهار الاستعمار — أو دعنا نسميه كما سماه أحد علماء الإسلام المعاصرين : غارة أوروبا على العالم الإسلامى — وبلوغه أوج قوته : فكانت انجلترا قد أتمت استعمارها للهند ، وبعد الثورة الكبرى عام ١٨٥٨ أعلنت انجلترا ضمها إلى أملاكها ، وأخذت تديرها إدارة مباشرة ؛ وبذلك أصبح تحت حكمها ولايات تسكنها أغلبية من المسلمين . وكانت الأفغان مسرحاً للدسائس التى ألجئنا إليها ، وكذلك إيران التى كانت روسيا وانجلترا تتصارعان — طوال القرن الماضى — على التدخل فى شئونها ووضع اليد على مواردها . وأما مصر فقد كان التنافس فيها قائماً بين انجلترا وفرنسا ؛ وقد كان التغلب للأخيرة أولاً بما فازت به من الحصول على امتيازات فتح قناة السويس ؛ وتوجت مجهوداتها بالنجاح عند الاحتفال بافتتاح هذه القناة فى عام ١٨٦٩ ، ثم بعد هزيمة فرنسا أمام ألمانيا فى حرب السبعين خلا الجو لانجلترا ، فأسرعت إلى شراء أسهم القناة ثم إلى التدخل تمهيداً لاحتلال البلاد . وكان والى مصر « إسماعيل » يسوق البلاد سوقاً إلى الخراب ، ويدفعها إلى الهاوية دفعاً ؛ فقد باع مواردها ثمناً للربا وأغرقها بالديون ، وأسلم رقبتها إلى المرابين ليذبحوها ويسلخوها كما يشاءون . هذا بينما كانت الدولة العثمانية قد خضعت خضوعاً تاماً للدول المستعمرة . وبعد عقد معاهدة باريس ١٨٥٦ التى انتهت بها حرب القرم أصبحت كأنها تحت حماية انجلترا ، وصار سفير انجلترا فى الأستانة كأنه الحاكم الفعلى للدولة العلية ، وما يتبعها من ولايات .

ولم تكن الكارثة الكبرى هى مجرد استغلال هذه الدول الأوروبية لموارد البلاد الإسلامية ، أو تمكنهم من بسط نفوذهم السياسى أو الثقافى ؛ بل كانت الكارثة العظمى هى أن روحاً من الإعجاب بهؤلاء المستعمرين قد أخذت تسرى بين الشعوب الإسلامية ، وأخذ جو من الشك يعم أنحاء الشرق ، وظهرت دعوة قوية إلى اتباع الغربيين وتقليدهم فى أساليب حياتهم ، دون نظر إلى ما كان منها صالحاً أو فاسداً ، وكان هذا كله مؤدياً أو سيؤدى لا محالة إلى ضعف إيمان الشرق بنفسه ، أو زعزعة ثقته فى مبادئه وثقافته . ولما كان الناس على دين ملوكهم ، فقد كان هناك عاهلان فى الشرق على رأس هذه الدعوة ، بل كانا يبذلان كل جهد فى سبيل إقناع الناس بها ، ويضحيان بالأموال ليروّجا لها : وهما السلطان عبد العزيز خليفة آل عثمان فى تركيا ،

والخديو إسماعيل حفيد محمد على فى مصر . فقد كان كلٌ منهما مفتوناً بأوروبا مغرماً بما شاهده من المظاهر المادية ، مدفوعاً إلى تقليد الغربيين فى فنون عبثهم ولهوهم ، حتى جهر الأخير — وهو يشعر بالزهو والافتخار — أن « مصر قطعة من أوروبا » ؛ وكان هذا هو المبدأ الذى عمل له كما عمل شبيهه العثمانى ، وإن كانت أوروبا لا ترضى إلا بأن يكون ذيلا لها — إن قبلت — لا قطعة منها .

فى هذا الجو وفى هذا العصر نشأ جمال الدين ، وقد طوّف بأرجاء البلاد فى الشرق والغرب ، وشاهد ودرس ، واطلع بنفسه على حقائق الأمور ، وأحس بهذه الاتجاهات وعرف هذه الدعوات ؛ وأدرك إذن مدى الخطر الذى كان يتهدد العالم الإسلامى ، وسبر عمق الهوة التى كان يدفعه إليها قادته المفتونون وزعماؤه الجهلة ليتردى فيها ، فتتحطم قواه المعنوية تحطيما لا يرجى لها إصلاح بعده . كان هذا هو مفترق الطرق فى حياة العالم الإسلامى ، والأزمة الدقيقة الخطيرة الأثر فى تاريخه . وقد شاءت العناية الإلهية أن يوجد جمال الدين فى ذلك الوقت ليؤدى رسالة اختارها له القدر ، من أنبل الرسالات التى قام بها المصلحون وقادة الشعوب فى المراحل الحرجة من تاريخ حياة أممهم ، عميقة المغزى خالدة النتائج ، وهذه الرسالة تتلخص فى إيقاف الشعوب من الهُوى التى يراد لها أن تتردى فيها ، ومقاومة التيارات والتأثيرات الضارة التى من شأنها أن تؤدى بها إلى التهلكة ، ورفع الغشاوة عن أبصارها وهدايتها إلى سُبُل الرشاد ، فهذا كله يؤدى إلى عرفانها نفسها ، ورد الثقة إليها فى قدرتها وإمكانياتها ، وإحياء آمالها ، وتجديد إيمانها بمستقبلها ومثلها . وهذه هى الأهداف التى عمل لها جمال الدين ، ووقف عليها وقته وجهوده وضحى بكل شىء ، حتى حياته فى سبيل تحقيقها .



نظر جمال الدين فوجد أن سبب البلاء وأصل العلة أمران : الاستعمار الأوروبى ، والاستبداد السياسى . وكان يرى أن وسائل انجلترا فى محاربة الشعوب الإسلامية هى أخطر الوسائل ، ولذا عدها العدو الأول . ومن أكبر ما يمهد للاستعمار ويزيد من قوته ، ويوجد عوامل بقائه ، شعور الإعجاب به والوصول إلى الاعتقاد الخاطىء بأن تفوق أهله يرجع إلى مزية طبيعية فيهم ، مع اقتصار النظر على المحاسن الظاهرة دون معرفة ما تنطوى عليه من مساوىء وشرور باطنة ، والغفلة فى نفس الوقت عما كان عليه الحال فى العصور السالفة . أما استبداد الملوك والولاة بشعوبهم فهو آفة الآفات التى نتج عنها الخطر الأول ؛ فلولا حرمان الشعوب من استعمال حقوقها وإبعادها عن الاشتراك فى السياسة ، ولولا استمرار استغلالها وتسخيرها ، والرضا ببقائها

فى الجهل ، وسوقها سوق العبيد ، وقسرها على أن تحيا حياة تفضى إلى سقم الجسم والروح . لولا ذلك كله — وهو نتيجة سياسة الحكام والأمراء المستأثرين بالسلطة وكل الخيرات — لما أمكن للشعوب فى بلاد الإسلام أن تصبح فريسة للطامعين والمعتدين من أهل أوروبا . وكان السيد ينظر إلى ما آل إليه حال العالم الإسلامى وما كان عليه حاله من قبل من عزة ومنعة ، وما ساهم به فى بناء الحضارة وتقدم الإنسانية بمجهوداته فى ميادين العلم والعمران ، فتثور نفسه ويهيج خاطره ، ويدعو العقول إلى أن تتيقظ والمشاعر أن تتحرك ، ويهيب بالأيدى أن تعمل ، والجماعات أن تتحرر .

وقد وجد جمال الدين أن طرق الإصلاح هى : رفع المستوى الفكرى والروحى لهذه الشعوب ، بنشر الثقافة الإسلامية الأصيلة ، واغترافها من منابعها الأولى . فكان يدعو إلى إحياء العلوم الإسلامية والتجديد فيها ، وكان درسه بمصر وفى غيرها من البلاد نموذجاً عملياً لما يمكن أن يسار عليه فى فهمها ، وعرضها فى ثوب قشيب يتفق مع روح العصر . وقد حمل عنه هذه الطريقة الشيخ محمد عبده وغيره ، فكان لأعمالهم وتوجيهاتهم العلمية أنفع الأثر .



وكانت القاعدة التى تقوم عليها الطريقة الاجتهاد وتحكيم العقل لا التقليد . أما الطريق الآخر للاصلاح فهو تحرير الشعوب من الاستبداد ، ورفع نير الظلم عنها ، إلى أن تصل إلى التمتع بحقوقها السياسية وتصير لها الإدارة العليا فى تصريف شئونها وتقرير مصائرها . وفى سبيل ذلك كان يعمل السيد دائما إلى إثارة الشعور وتنبيه الأقوام إلى حقوقهم ، بالأحاديث والخطب ، ونصح رجال الصحف بأن يكتبوا المقالات ويحاولوا الإجادة فيها على أحسن ما تقتضيه الأساليب والقواعد العربية ؛ فأدى هذا أيضا إلى البدء فى إيجاد نهضة لغوية . وكان السيد يدعو إلى جانب ذلك إلى اتحاد الشعوب الإسلامية ، وجاهد من أجل جامعة تلم شملها لكى تصبح جبهة قوية أمام أعدائها .

ولم يحتج جمال الدين فى اهتدائه إلى طرق الإصلاح هذه — أى فيما يتعلق بالنواحى السياسية — إلى أن ينقلها عن زعماء أوروبا ولا عن رجال « الثورة الفرنسية » ولا غيرهم ؛ ولكنه اقتبسها من الإسلام نفسه ومن ثقافته وروحه ، فالإسلام يشتمل — فيما يشتمل — على أسمى المبادىء التى تتكون منها الديمقراطية ، وضمن فى شرائعه — فيما ضمن — الحقوق السياسية للانسان . ودعا إلى الحياة الاجتماعية الرفيعة الفاضلة . وذلك كله قبل أن تصل أوروبا إلى معرفة هذه المبادىء

بعشرات القرون . ولم يكن مصدر إلهامه غير القرآن والسنة وأعمال السلف . ولكن جهل الأمم الإسلامية بمبادىء دينها وحقائقه — أو على الأقل عجزها عن تنفيذ هذه المبادىء — هو الذى أدى بها إلى أن تصبح ذليلة ، وتترك مصالحها ومصائرها فى أيدى حكام غشمة متجبرين لا ضمير لهم ، يعبثون بها كما تشاء أهواؤهم ويضيعونها .

لبث السيد جمال الدين يدعو طوال حياته إلى تلك المبادىء . وقد طوف بأقطار كثيرة فى الشرق والغرب ؛ فصار شخصية عالمية . فكان قد ذهب إلى الحجاز فى مطلع حياته لأداء فريضة الحج ، وحين غادر بلاده توجه أولا إلى الهند ، ثم إلى مصر فترة قصيرة ، ثم ذهب إلى الأستانة فأوقع به هناك الرجعيون . فعاد إلى مصر ولبث بها هذه المرة ثمانى سنوات (١٨٧١ - ٧٩) ؛ وبعد أن أخرج منها رجع إلى الهند ، ثم زار بعد ذلك أوروبا : فزار انجلترا وفرنسا وروسيا . وفى أثناء ذلك توجه إلى فارس مرتين بدعوة من الشاه ناصر الدين . وأخيراً أغراه السلطان عبد الحميد بالذهاب إلى الأستانة فبقى بها شبه أسير حتى اختاره الله إلى جواره ، فى ٩ مارس سنة ١٨٩٧ .



ولكن لعل أهم فترة فى حياته كانت تلك التى قضاها فى مصر ؛ فهناك وجد تربة خصبة ولقى نفوسا مهيأة لدعوته ؛ وكانت الأحوال السيئة والظروف البائسة التى أوجدها حكم « إسماعيل » ومن سبقه من أفراد أسرته ، قد كونت فى نفوس أهالى البلاد عوامل ثورة ، ولكنها كانت فى كونها تحتاج إلى الموقظ والقائد والموجه ، فوجدت ذلك فى شخص السيد جمال الدين حينما نزل بمصر ؛ وكفى أنه كان من بين تلاميذه الشيخ محمد عبده وعبد الله النديم وسعد زغلول وعبد الكريم سلمان وغيرهم . ولذا فإنه كون مدرسة أو جيلا كانوا هم الطليعة من بناة مصر الحديثة المجاهدة من أجل الحرية والنهضة على أسس إسلامية . وما زال أثرهم متصلا إلى اليوم . كما أثمرت تعاليمه أيضاً فى إيران ، فبث فيها من الروح مثل مابث من قبل فى مصر وكانت ثورته وحملته العنيفة على الشاه هى المقدمة التى مهدت إلى الثورة الدستورية التى قام بها أهل تلك البلاد فى عام ١٩٠٦ ، ثم أدت فيما بعد إلى خلع أسرة « قاجار » ، التى كانت تحكم الفارسيين منذ أواخر القرن الثامن عشر .

وكانت قوة جمال الدين فى شخصيته التى كانت أظهر الصفات التى تتميز بها : حدة الذكاء إلى مرتبة العبقرية ، وسعة الأفق ، ونقاء الوجدان ، وحساسية الشعور ؛ وفى طاقته الروحية الكبيرة المستمدة من صوفيته ، التى كانت سريعة التأثير فى كل من يتصل به ، وتمكنه من التغلب على مخالطيه ، وتجذب إليه القلوب — وكان جمال الدين متأثراً بالإمام الغزالى يعتبر نفسه أحد تلاميذه فى نزعته الصوفية العلمية — كما كانت قوته تصدر أيضا

عن إيمانه بمبادئه ، وثقته بنفسه ، واعتداده بها إلى حد أنه كان يعتبر نفسه كفاء الشاه ناصر الدين أو السلطان عبد الحميد حينما يحدثهما ، بل أكبر منهما أيضاً ، وأيد هذا كله جنان جرىء ، وفهم عميق للثقافة الإسلامية ، ويقين ثابت فى مستقبل الإسلام .

ولا نرى فى ختام هذا الحديث عنه أوفق من أن نقتبس بعض ما قال عنه بعض المؤرخين الغربيين الذين درسوه بروح خالية من التحيز ، وبعض الأقوال التى أثرت عنه والتى تعبر بلسانه عن بعض مبادئه : فقد قال الأستاذ « براون » : « إن جمال الدين كان فيلسوفا كاتباً خطيباً صحفياً ؛ وفوق ذلك كان سياسيا . . . وكان له أثر بالغ فى النزعات الثورية التى حدثت فى عشرات السنين الأخيرة فى الحكومات الإسلامية ، وكان يرمى إلى تحرير الممالك الإسلامية من السيطرة الأوربية ، وإنقاذها من الاستغلال الأجنبى ، وإلى ترقية شئونها الداخلية بالإدارات الحرة المنظمة . كما كان يرمى إلى جامعة تنتظم الحكومات الإسلامية — ومنها إيران الشيعية — لتتمكن بهذا الاتحاد من منع التدخل الأوروبى بشأنها »

ويقول « لوثرب ستودارد » ، وهو مؤرخ أمريكى : « إن خلاصة تعاليم جمال الدين تنحصر فى أن الغرب مناهض للشرق ، والروح الصليبية لم تبرح كامنة فى الصدور كما كانت فى قلب « بطرس الناسك » ، ولم يزل التعصب كامنا فى عناصرها ، وهى تحاول بكل الوسائل القضاء على كل حركة يحاولها المسلمون للاصلاح والنهضة .

ومن أجل هذا يجب على العالم الإسلامى أن يتحد لدفع الهجوم عليه ؛ ليستطيع الذود عن كيانه » .

ومما قال السيد جمال الدين نفسه : « إذا لم يبن تقدمنا وتمدننا على قواعد ديننا وقرآننا فلا خير فيه ؛ ولا يمكن أن نتخلص من ربقة الانحطاط والتأخر » .

وقال أيضا فيما روى عنه : « ما نراه الآن من حالتنا المستحسنة ظاهراً هو عين التقهقر لأننا فى تمدننا هذا مقلدون للأمم الأوربية . وبسبب ذلك يخشى علينا بعد زمن طويل أن نخنع للذل والسلطة الأجنبية ، أو تتبدل صبغة الدين الإسلامى الذى من شأنه رفع راية السلطة والتغلب ، إلى صبغة خمول وذل بعض الشعوب القديمة » .

وعبر الشيخ محمد عبده عن مدى تأثيره الروحى فقال : « لقد أعطانى والدى حياة يشاركنى فيها على ومحروس . أما السيد جمال الدين فقد أعطانى حياة أشارك بها محمداً وإبراهيم وموسى وعيسى صلوات الله عليهم ، والأولياء والقديسين » .

وبعد فإن جمال الدين كان لا يرى أن الإسلام عبادة فقط ؛ ولكنه عبادة وقيادة ، وعلم وسياسة ، وعمل وإصلاح ، وقانون وأخلاق . ولا تزال لتعاليمه جدة ، ولا يزال كثير من نظراته صادقة . وما أحوجنا إلى اتباعه والاقتداء بتلك الروح .

سبحات فكر

للأستاذ الدكتور عبد الوهاب عزام

سفير مصر بالباكستان

على قدر القرب تحاسبون

كلما صليت في المسجد الحرام فرأيت التفاف المصلين حول الكعبة ، تذكرت أن المصلى هناك عليه أن يتوجه إلى الكعبة لا يحيد عنها يمنة أو يسرة ، ولا يقبل منه إلا إصابة عينها ، لا يجزئه إصابة جهتها ، وأن المصلى في المواضع الأخرى يقبل منه أن يتوجه جهتها ، ولا يكلف أن يكون وجهه إلى بنائها ؛ بل يُسامح في الانحراف والارتفاع والانخفاض . فجال في نفسى هذا المعنى : أن الحساب على قدر القرب . فالإنسان يكلف بحاجات الإنسان على قدر قربه ؛ وكلما قربت القرابة زاد التكليف ، وعظمت الحرمات ، وكثرت التبعات . وكذلك الإنسان مع ربه كلما زاد قربه إلى الله تعالى بإدراك عقله ما أحاط به من قوانين الله وآياته ، وبشعور وجدانه بالله واستنارته به ، كلما أدرك الإنسان صلات القرب هذه واخترق بعقله وقلبه الحجب ، كثرت عليه التكاليف ، وعظمت التبعات ، وطولب بما لم يطالب به الجاهل الغِرّ والمفرّط الغافل . وهكذا تعظم التبعات على قدر رقى الإنسان في درجات الكمال حتى يصدق ما قيل : حسنات الأبرار سيئات المقربين . وهكذا تختلف الواجبات على اختلاف الدرجات ؛ فعلى العالم أمور لا تجب على الجاهل ، وعلى الحاكم تكاليف لا تجب على الرعية ، وعلى القادة تبعات ليست على التبع وهلم جرا . فقياس كمال الإنسان ما يُؤخذ به من أوامر ونواه استجابة لما يدرك عقله ويشعر به قلبه ؛ فليحاسب كل امرئ نفسه على قدر ما آتاه الله من قدرة في الجسم والعقل والعلم والإدراك والشعور :

« يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير » .

***

على الله

كنت في فندق مصر الذى بمكة المكرمة في مجلس جمع بعض الإخوان فدخل رجل ووقف بعيدا منا ، وأشار إشارة عرّفتنا أنه سائل . ودعا أحدنا ابناً له أن أعطه

شيئا ، فأعطاه شيئا فرآه السائل قليلا فرده ، فعجبنا وضحكنا ، فأخذه الرجل ناحية وأعطاه ما أرضاه فأشار إشارة التسليم وخرج .

قال أحد حاضري المجلس :

جلست على مقهى في أطراف مكة خارج باب جدة ، فجاءني سائل فقلت : على الله فانفتل مسرعا لم ينطق بكلمة ولم يشر إشارة . فعجبت من أمره وأسفت أن لم أعطه ، فأرسلت خادمي بريال . فقال الرجل لا لا . قلتم على الله فلا آخذ شيئا ، قال فرددت الخادم بريالين فلم يقبل . وقال قلتم على الله فلن أقبل شيئا . قال ورددت الخادم المرة الثالثة فألح عليه ليأخذ فقال للخادم : والله لئن أعطاني عمك (سيدك) ألف ريال وهذه السيارة التي معه لا أقبل شيئا . قال المحدث لقد تمنيت حينئذ أن يقبل مني ألفي ريال .

قلت : رجل سمع اسم الله فذكره فعز به فاستغنى فاستكبر وأبى أن يستعين بغيره . وحقر المال وأصحابه ، والغنى وطلابه ؛ بل رأى نفسه بالله أغنى من كل غنى وأكبر من كل كبير .

وقلت : سبحان الله لقد تحول الرجل في لحة من ذل الاستجداء إلى عز الاستغناء : سأل فازدُرى وحرُم ، فعف واستغنى ، فلحقه المال يلح عليه فيرده ، ويتضرع إليه فلا يسمع له ، رفضه المال قبل لحات وهو الآن يرفضه ، وأذله منذ لحظات وهو الآن يذله . كان منذ لحظات سائلا يُنهر فصار مسئولا يَنهر ، كان ذليلا فعز ، وحقيراً فعظم ، كان طالبا فطُلب ، وسائلا فسئِل . ولقد اعتز بالله واستغنى به .

جاء في الأثر : استغن عمن شئت تكن نظيره .

أكثر الناس شكية عامل إلى جعفر بن يحيى فوقع إليه في قصتهم .
« يا هذا ! قد كثر شاكوك ، وقل حامدوك ، فإما عدلت ، وإما اعتزلت ! ! »

من المذكرات

يوم فى أندونيسيا

أصبحت متعبا كأنى قضيت الليل كله أضرب بفأس ، ولعل سبب ذلك أنى صحوت مرات على هدير المطر يخف حينا ويشتد أحياناً فى صوت ذكرنى بنواعير حماة[1] ، وقمت أجمع الأشياء اللازمة لسفرتى اليوم إلى بوكتنجى Bukittingi فى جزيرة سومطرة الوسطى ، وجاء الرجل الفاضل السيد على سونكر صاحب الفندق الذى أنزل فيه ، والذى أصبح النزل الكريم لضيوف أندونيسيا من العرب والمسلمين . . جزاه الله كل خير وبارك هذه العاطفة فيه ؛ وجاء معه ابنه الظريف « مصطفى » وهو بدوره قطعة من أبيه ، وسمير مؤنس ومعوان وقت الحاجة بكل مايستطيع ، وخرجنا إلى المطار مع إخوة آخرين عزاز... وطارت الطائرة إلى «بادانج» .. والمسافة كما قيل لنا ساعتان ونصف : أى أكثر من المسافة بين القاهرة ودمشق ، وتأملت الركاب فإذا هم مزيج من أجناس شتى ، بعضهم أندونيسيون وبعضهم أمريكيون وبعضهم صينيون : والصينيون هم يهود الشرق الأقصى فى عالم المال ، ويوجد منهم فى أندونيسيا مليونان مستحوذان على أكثر السوق ؛ وكان الجالس إلى جانبى أمريكيا فارع القامة كثير الكلام والأمريكان فى هذه البلاد يزداد عددهم كل يوم ؛ فلا تكاد تصل طائرة أو مركب إلى جاكارتا دون أن يكون بين ركابها أمريكى جديد ، أو عائد بعد « إجازة » من أمريكا إلى أندونيسيا الخصبة الحلوب ... وقد علمت من أمريكية ونحن فى الطريق بين كراتشى وجاكارتا أن عدد العائلات الأمريكية فى البلدة التى تقيم بها مع زوجها على بعد ثمانين كليو مترا من جاكارتا أربعون عائلة ... وجعلتنى رؤية هؤلاء أفكر طويلا فى إهمال ساسة المسلمين ناحية العلاقات الاقتصادية بين أقطارهم ، وأجد فى نفسى إعجاباً شديداً بإخلاص هؤلاء فى عبادة دنياهم وتحملهم فى ذلك مشاق الغربة واختلاف البيئة والطقس ، وشعورا عميقا بالحسرة على الرخاوة التى أصابت المسلمين والبلادة التى جعلتهم مطية كل راكب ، وقد كان آباؤهم الأولون مغامرين يضربون فى كل أرض ؛ وإنما دخل الإسلام أندونيسيا

---

(١) هى سواق مستديرة ضخمة مقامة على نهر العاصى فى مدينة حماة بسورية وإليها تشير تورية الشاعر اللطيفة « وعلى العاصى تدور الدوائر » .

مع قوافل التجار العرب المخاطرين ... ولا أظن اكتشاف أمريكا إلا أثراً من آثار روح العلم والبطولة التى بعثتها جامعات المسلمين فى الأندلس حين كانت أوربا ترزح تحت جهل مطبق وتسكن الأكواخ .. ألا ، ما أشد ما تفعل الأيام ... ويقتل الحول !! .. ولم يقطع علىّ تفكيرى إلا الحركة العنيفة التى أصابت الطائرة فجأة فراحت تتأرجح كالطائر المذبوح واشتد تأرجحها حتى اضطرب أكثر الركاب ، وكانت السماء مليئة بالسحب التى تزداد والطائرة تعلو وتنزل كأنها تريد أن تتفادى شيئاً ، وتميل يمنة ويسرة كأنها لا تستطيع التماسك أمام هجمات السحاب ، واختفى وجه الشمس من فوقنا وأديم الأرض من تحتنا ، واحتوانا السحاب فى طياته على صورة قاسية توقظ النفس كلها على معنى قول الله : « وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه » .

هذا فى البحر ، فما بالك بضر الجو والعياذ بالله ... لقد كنت أنظر من نافذة الطائرة فأرى جناحها يعلو ويهبط وأرى كتلا من السحب تتبع بعضها بعضاً مع أن ارتفاع الطائرة كان فوق ١٦ ألف قدم : أى أكثر من خمسة كيلو مترات ، ثم أرقب ثغرة بين طبقات السحب لأرى من خلالها أين نحن ، وفوق أى جبل من جبال أندونيسيا ، وعلى أية غابة سنهوى إذا كان فى مقدور الله أن تكون هذه هى الرحلة الأخيرة .. واستمر ذلك ساعة كاملة أو يزيد ... خرجنا بعدها إلى جو طلق فسيح وإلى سماء صافية زرقاء ... وكأن الطائرة تمشى فجأة على بساط ناعم ممدود ...



ونزلت الطائرة فى مطار بادانج فوجدت فى استقبالى ثلاثة من رجال حزب ماشومى : هم الأخ حسن ساروتى ، والأخ قاهر محيى الدين ، والأخ رشيد ، وبدأنى الأخ حسن بالعربية : « الأستاذ سعيد رمضان؟ » .. قلت : نعم . قال : « لقد أبرق إلينا الأستاذ محمد ناصر بتشريفكم فأهلا بكم وسهلا » وقدم إلى زميليه ، فآنست فى وجه قاهر عزما وبراءة نفس ، ثم مضينا إلى الفندق الكبير حيث تناولنا طعام الغداء ، وهو أندونيسى (قح) .. وأنا أحب الطعام الأندونيسى وأحب فيه (البسباس) الحار الذى يفتح الشهية بسحر ساحر ، وهو على تنوعه خفيف سهل الهضم ، وقد جربت الطعام المصرى عند صديق مصرى فى جاكارتا فأتعبنى ، ففهمت من ذلك — وهذه يمكن أن تكون نصيحة لكثيرى الأسفار — أن من الخير دائماً التعود بالقدر الممكن المعقول على الغذاء السائد فى كل إقليم لأنه أنسب للبيئة وثمرة تجارب أهله الطويلة ، ثم هو لون من الدراسة يكوّن فيك واقعية تجعلك أشد إحساساً بالإقليم الذى أنت فيه وأكثر تجاوبا مع أهله حين تجلس إليهم وتأكل مما يأكلون . . . وقد يكلفك ذلك رهقا أحياناً . .

...أذكر أنني أخطأت مرة فذكرت لصديق باكستاني سألني عن الألوان التي راقتني من الأطعمة الباكستانية فعددت منها « النهاري » ، والنهاري طبخة حارة من مخ العظام مع توابل وأشياء لا أعرفها .. ففوجئت به صبيحة اليوم التالي بعد صلاة الفجر في المسجد يدعوني لأفطر معه في بيته ، ودعا إمام المسجد ومجموعة من المصلين الذين انعقدت بيني وبينهم بمرور الأيام صلة رتيبة .. وإذا بطعام الإفطار « نهاري » وأراد الرجل أن يضاعف في إكرامي فملأ لي وعاء خاصا وزاده من المواد الملتهبة ، فأخذت آكل وعيناي تدمعان ، وهو جالس أمامي يلح على ألا أبقى شيئاً ... وأنا في حرج بين ماقلته بالأمس من حبي للنهاري وبين ما أجده من لهيب ماحشده لي اليوم وظنه مبالغة في الكرم ! .

ومضينا بعد الغداء بالسيارة إلى « بوكتنجي » وهي على بعد ثمانين كيلو متراً من بادانج ، وفاتني أن أقول إننا مررنا قبل ذلك على منزل السيد أحمد رشيد منصور نائب رئيس الجماعة المحمدية وهو رجل عذب الروح كبير القلب استقبلني بعاطفة أحسست بردها في كل أوصالي ، وأقبل عليّ أولاده الظرفاء في أدب وحرارة ، فذكرت ولدى أيمن في القاهرة ، وقال لي السيد أحمد : إنني أقرأ « المسلمون » كل شهر ، بارك الله فيها وفيك ، وأتابع نشاط الإخوان المسلمين أعز الله بهم الدين . وتحدثنا عن الأحوال في مصر وأندونيسيا وودعته وبودى ألا أتركه ، ثم مضت السيارة في طريق جميل من الأشجار المتعانقة ، وحيثما نظرت يمنة أو يسرة ، إلى قريب أو إلى بعيد ، وجدت أرضاً خضراء وجبالا ووديانا مكسوة بأثواب جميلة أخاذة من الأشجار والثمار ، وعن يمينك جبال عالية تكسوها سلسلة من الغابات التي يعيش فيها النمر والدب والغوريلا والغزال . . . والأسد في قليل منها .. ومن طريف ما رأيته عند بلدة « دوكو » بعض القردة فلما سألت عنها علمت أنها تعيش بين الناس كما تعيش القطط بيننا ، ويستخدمها الفلاحون في جمع ثمار جوز الهند من أشجاره العالية . . ولما وصلنا إلى « باسار أوسنج » رأيت نصباً تذكاريا حدثوني أنه يمثل حادثة أليمة أثناء الكفاح الوطني ضد الهولنديين ، إذ ألقى الهولنديون قنابل قتلت أكثر من ألف من المدنيين في فبراير سنة ١٩٤٧ ، فأثار ذلك في نفسي شجونا وألما ممضا ، وبدت البيوت المحرقة المهدمة وسط مظاهر الطبيعة الجميلة الفاتنة مثلا بيِّناً لضراوة الإنسان وجحوده ! !

وتكررت هذه المناظر عند « لوبون ألون » وقرأت فيها بأعصابي صفحة من تاريخ آلام إخواننا المسلمين في هذا الجزء العزيز من ديار الإسلام ، وسألت الله الرحمة للذين صرعتهم اليد الآثمة ، وتمام العزة والتحرر لكل المسلمين . ومرت السيارة

فوق قنطرة على نهر « كيانج بنج » فذكرنى نهر بردى بدمشق ، ثم انحدرت إلى واد عريض عند « كابوتنام » فيه مدرسة للموسيقى والرسم أنشأها الأستاذ محمد الشافعى . . والحقيقة أن كل ما حولك فى هذه الربوع يهمس فى نفسك همساً رائعاً يقصر عن تصويره الرسم والموسيقى . ووصلنا إلى « آنى كلدف » فكأننى فى الطريق بين السلط وعمان وكأن الطريق الملتوى بين الجبال كالثعبان هو الطريق بين القدس ويافا . . آه وما تغنى آه ؟!. إلا أن الجمال هنا أنضر وأروع ، وماء الشلالات يهدر كأنه يتكلم فى النفس بلغة رهيبة قاسرة ، والسحاب يعانق رؤوس الأشجار فى منظر بهيج حالم لا يكاد يكفى فى تصويره تعبير الإنجليز عن المنظر الذى يشدههم بأنه « موسيقى متجمدة »

ودخلنا مدينة « بادانج بنجنج » وهى مدينة خفيفة الروح ذكرت حين رأيتها مدينة « كاكول » مقر الكلية العسكرية بالباكستان ، اشتهرت فى أندونيسيا بكلية المعلمات الإسلامية التى أنشأتها السيدة الفاضلة الأستاذة رحمة اليونسية ، واقترح رفاقى أن نعرج عليها لزيارتها ففعلنا ، وفوجئنا فيها بمؤتمر نسائى يضم سيدات مندوبات عن نواحى سومطره الوسطى ، وكلهن متخرجات فى الكلية وأصبحن الآن أمهات ، وقد اجتمعن للنظر فى قانون الزواج ووجوب مراعاة أحكام الإسلام فيه ، فسألتهن عما يعترضن عليه فقالت إحداهن على سبيل المثال : إن القانون يفرض على الزوج إذا طلق زوجته أن يدفع ألف روبية أندونيسية للزوجة . . . وهذا شىء لم يطالبه الإسلام به فكيف يفرض عليه ؟ فأدهشتنى هذه الروح العالية التى جعلتهن يجتمعن على حكم الإسلام فى ذاته غير متأثرات بأى اعتبار آخر — كما أعجبنى لباسهن الجميل الذى لا تبدو منه إلا وجوههن فى جو ملائكى محبب — ودعت السيدة رحمة مدرسات الكلية وطالباتها إلى اجتماع سريع ، وفى الكلية ستمائة طالبة من أنحاء أندونيسيا يقضين أكثر السنة داخل الكلية فى برنامج تربوى منظم نهارهن ولياهن . وطلبت منى السيدة رحمة أن أحاضرهن عن الإسلام وأن أشرح لهن شيئاً عن حركة الإخوان وعن الوضع فى مصر ، ففعلت ، وكان السيد حسن يترجم كلامى جملة جملة ، وهن يصغين اصغاء تاما ، وأدهشنى أن قامت بعد ذلك فتاة من بينهن ترحب بى بالعربية وتسألنى عن سبب حل الأحزاب المصرية ، وعن علاقة حركة الجيش المصرى بحركة الإخوان المسلمين ومدى أثرها فى الدستور المصرى الجديد وعن الحركة النسائية فى مصر وهل استطاع الأخوات المسلمات أن يقاومن شطط الحركة النسائية ؟ وهل آن للحكومة المصرية أن تمنع عن أندونيسيا الأفلام الفاجرة التى تؤذى أخلاقنا وتسىء إلى سمعة مصر ؟ ؟ ؟ . .

أدهشنى هذا الوعى ، وودعتهن بعد ساعتين مثلج الصدر معجباً بنشاطهن وأهديتهن صورة زوجتى فأطربتهن وحدة الزى وحملننى تحياتهن إلى الأخوات المسلمات وتحية خاصة إليها : أرجو أن يسمح بها الأخوات !

وواصلنا الرحله إلى « بوكتنجى » فوصلناها فى المساء ، وزرنا رئيس حزب ماشومى فى داره فوجدناه مريضا ــ شفاه الله ــ وذهبنا إلى فندق «جراند» حيث استرحنا قليلا ثم خرجنا لنتناول طعام العشاء فى مطعم (سلامة) وهى كلة عربية كما ترى ... وأثر فى نفسى بشاشة عمال المطعم وحسن استقبالهم . . . كما هزتنى كلة فى أغنية من المذياع هى «ياإلهى» لقد تجمعت فى هذه الكلمة فى نفسى معان كثيرة . . دخول العرب بالإسلام فى هذه الديار أول مرة . . . وصلة الدين العميقة التى تربطنى بأبناء هذه البلاد . . . والأثر البعيد الذى تحدثه وحدة اللغة إذا انتشرت العربية فى أقطار الإسلام . . و . . و . . . وذهبت بهذه الخواطر كلها ملء القلب والرأس لأنام ! !



باب جــــديد

يسرنا أن نفتتح من العدد القادم بمشيئة الله باباً جديداً تحت عنوان : « إن لبدنك عليك حقاً » يشترك فيه عدد كبير من كبار الأطباء المتخصصين فى شتى فروع الطب ، ويشرف عليه حضرة الأميرالاى الدكتور أحمد الناقة .

والتحرير يرحب بكل استشارة طبية من الإخوة القراء . .

الطب عند المحدثين

للأميرالاى الدكتور أحمد الناقة

المسلمون الذين يبلغ عددهم خمس سكان العالم والذين يدعوهم دينهم إلى القوة ويريد الله أن يبعثهم من مرقدهم كرة أخرى جدير بهم أن يتدبروا أمر صحتهم حتى يصيروا أمة حية قوية بصحة أجسادها وصحوة عقولها وسلامة جماعاتها .

وقد تطور الاهتمام من صحة الجسم إلى صحة العقل ثم إلى صحة المجتمع فأصبحنا نعلم أن الجسم السليم والعقل السليم والمجتمع السليم جميعها لازم لاستقرار السلم والأمن والخير العميم .

والسرعة طابع هذا العصر فقد بلغ العلم والمعرفة والتطبيق فى مدى المائة عام الأخيرة شأواً فاق كل ماسبقه فى عصور التاريخ ، وأحدث انقلابا فى حياة البشر لايعلم مداه إلا الله .

فالمواصلات تطورت من الدراجة إلى آلة الاحتراق الداخلى فى السيارة والباخرة والطائرة ، فزالت الحواجز وقربت المسافات وصغر العالم .

والأنباء تطبق الدنيا فور ظهورها . وقد ضعفت روابط الأسرة وانحلت قيود الجماعات الصغيرة فاندمجت فى جماعات كبرى تتعاون فى السراء والضراء وحين البأس

وقد أحدث البحث العلمى فى الطب فروعا كثيرة : فقد أدى المجهر « الميكرسكوب » إلى مشاهدة الخلايا الحية فى حالتى الصحة والمرض فكان علم الأمراض « باتولوجى » سنة ١٨٥٨ وعلم الجراثيم سنة ١٨٨٠ . ومكن البنج سنة ١٨٥٠ من الجراحات الكبرى وظهرت الأشعة والراديوم فى أواخر القرن التاسع عشر فأعانت على الفحص والتشخيص والعلاج . وكذلك عرفت أمراض الصناعة وفساد البيئة وأمراض الحساسية والغدد الصماء وأمراض النفس . وفى العشر سنوات الأخيرة ظهر طب الجماعة واكتشفت بعض العقاقير العجيبة الحاسمة فى شفاء أمراض شتى « سلفا . بنسلين ونحوه » .

وتقدم رجال المال والأعمال فطبقوا نتائج الأبحاث فى صناعات الطب والصيدلة فشجعوا البحوث وأجزلوا العطاء للعلماء فكان سيل من العقاقير الجديدة قد يكون بعضها كبير النفع . ولولا أن اهتدت صناعة الكيمياء إلى عقار « الاتبرين » الذى

يشفى من مرض الملاريا لانهزمت جيوش الحلفاء فى أقصى الشرق حين وقعت مناطق زراعة الكينا فى أيدى اليابان . ولولا قوة الصناعة الكبرى لما استطاع المرضى أن يجدوا حاجتهم من أحدث العقاقير .

والجامعات ومعاهد الأبحاث تشعر بمنافسة ثقيلة من رجال الصناعة ، ولابد أن تتكفل الدولة بتمويل أبحاثها حتى لا تخضع لإغراء الصناعة التى تريد أن تجعل نتائج الأبحاث سراً تجاريا فتعطل التقدم العلمى .

والعالم الحائر الثائر المتناحر قد يرى السرية فى بعض أبحاث الذرة والكيمياء والجراثيم وأشعة الكون ونحوها بحجة صيانة الأمن والسلام . وهى حجة واهية فقد ثبت أن الغازات السامة والجراثيم لم تستخدم فى الحروب حين عرفها المتحاربان ، وأن الذرة استعملت حين عرفها فريق واحد . وإذن فيجب أن يقر فى الأذهان أن السرية فى البحث العلمى تضر بالعلم والسلم على السواء .



وتقدم رجال المال فى ميدان آخر هو التأمين على الصحة وعلى الحياة فأمنوا المرء من المرض وأمنوا أهله من العوز وأعانوا البحاثه فى الجامعات والجماعات على المباحث والإحصاء الطبى لحد المرض ومد الحياة .

ووظيفة الطب فى المجتمع حفظ الحياة ودعم الصحة بالقدر الذى يرضى الإنسان ويجعله عاملا منتجا فى مجتمعه . ويقوم الطب العسكرى بوظيفته على أحسن وجه .

ولا تزيد الجيوش فى أكثر الأمم على عشر السكان ويتولاها الطب العسكرى بالوقاية والإرشاد الصحى والغذاء الكافى والتدريب الوافى حتى تبلغ أسمى مراتب الصحة والكفاءة . والتاريخ الحربى حافل بالأمثلة الدالة على أن الجيوش يجب أن تنتصر على الأمراض قبل أن تنتصر على الأعداء .

والطب العسكرى يعيد إلى الميدان مرضى الجند وجرحاهم وقد شفوا والعجزة وقد صاروا قادرين على الحرب ، فيرفع بذلك روح الجند ويزيدهم شعورا بالأمن وحماسة فى قتال العدو . وكثيراً ماتهيأ له فرص البحث والدراسة لأمراض الحروب وجراحتها ووسائل نقل الجرحى والوقاية والتغذية والأدوية والأغطية والشئون الصحية بين المهاجرين والأسرى .

ولما عاد الجند من الحرب فأصبحوا مدنيين شعروا بالفرق الشاسع بين الرعاية الطبية التامة فى الجيش وخارجه . ومن هنا زاد الوعى الذى اتخذ صوراً شتى فى أرقى الأمم : تأميم طبى شامل ، أو تأمين صحى تقوم به الحكومات والشركات ، أو تعاون صحى اختيارى تقوم به الجماعات والأفراد .

طب الجماعة : وقد ظهرت فلسفة جديدة تستهدف صحة الناس كافة وتستعين بمباحث الطب والإحصاء والاجتماع على تشخيص أمراض المجتمع وعلاجها .

ويبدو أن العالم سائر نحو الإنسانية الجماعيـة بعد أن ضاق بالمادية الفردية وكفر بالتخصص المحدود الذى طغى على الاعتبارات الروحية والإنسانية . ففى أسباب المرض انصرف الاهتمام إلى الجراثيم وقلة الغذاء وأهملت العوامل الاجتماعية التى لولاها ما نمت الجراثيم ولا قل الغذاء .

ولـكل مرض قصته الاجتماعية التى تؤثر فى ظهوره وسيرته وعلاجه : السل . الروماتزم . أمراض القلب . الأمراض المتوطنة وغيرها .

وقد كان رجل الصحة العامة يهتم بالوسط والمحيط ويعتبر فساده أصل المرض . أما طب الجماعة فيهتم بالإنسان نفسه فى هذا الوسط الذى يتسع فيشمل الأجر والغذاء والمسكن والمهنة والتعليم والهموم ، وكلها ذات أثر بالغ على الصحة .



وكانت الصحة العامة تهتم بالأمراض المعدية فحسب ، أما طب الجماعة فيهتم بكل الأمراض الفاشية فى المجتمع معدية وغير معدية : روماتزم . سرطان . أمراض القلب . التصلب وضغط الدم . الزائدة الدودية . قرحة المعدة . الحوادث وغيرها . وجميعها يمكن اتقاؤها وتخفيف شرها .

وطب الجماعة يكفل لمرضى المستشفيات التشخيص والعلاج الاجتماعى . وإذن فقد انتقل مركز الأهمية من المحيط الميت الجامد الذى تعيش فيه الجماعة إلى المحيط الحى وإلى الجماعة نفسها فى هذا المحيط .

والرأى أن تحسين المسكن والمأكل والمشرب والمدرسة والمصنع والتشريع الصحى أجدى على الشعب من كل المستشفيات ومستحدثات الطب . ومن الخير إصلاح برامج التعليم والإرشاد الصحى وتدعيم الأبحاث حتى يبرز التشخيص الجماعى بجانب التشخيص الفردى ونسبة إصابة المجتمع بجانب نسبة الوفاة .

وقد شاخت أمم كثيرة فى الغرب : قل نسلها وزاد عمرها على الستين فزادت تبعاً لذلك أمراض الشيخوخة وتبعاتها من تدبير العمل الخفيف للقادرين ، وكفالة الرزق للعاجزين . وكذلك زادت أمراض الشباب من أثر ضغط الحياة وعجلتها وكفاحها .

وأكثر أمم الشرق تشكو كثرة النسل وقلة العمر عن ثلاثين عاماً . وهى أمم آخذة فى التعليم والتصنيع يجب ألا تغفل عن آثار التغيير الاجتماعى المتوقع نتيجة لذلك ، كما يجب ألا تغفل عن أخطار الحرب والذرة .

ونمو السكان خطر على الأمة إذا لم يصحبه أو يسبقه نمو الثروة لأنه يهبط بمستوى العيش ويضعف الصحة ويعرض للمرض . ولعل المجاعات والأمراض هى العامل المسيطر على عدد السكان فى بلاد كثيرة كالهند وغيرها .

ومنظمة الصحة العالمية تتولى باسم هيئة الأمم المتحدة معونة بعض الأمم المتخلفة وإرشادها إلى سبيل الصحة حتى لا تستمر على كثرة النسل وكثرة الوفيات وهو جهد ضائع ، بل تستعيض منه بقلة النسل وقلة الوفيات . فتجد الأمم سعادتها فى الأسرة الصغيرة القوية .

وعلى المهنة الطبية التى تحمى الحياة والصحة أن تنبه العالم إلى مصيره المظلم إذا هو لم يبادر إلى حسن توزيع خيراته وخدماته حتى لا يبقى على الأرض سادة وعبيد للفقر والجهل والمرض .



والأمل معقود على أن ينشأ الجيل الجديد من الأطباء بصيراً بالمريض فى بيئته بصيرا بالمرض فى جسمه ، ويجب ألا يقتصر تعليمه على قاعات الدرس وأسرة المرضى ، بل يجب أن يشمل كذلك أقصى القرى وأفقر الأحياء حتى يكون خبيراً بحاجات المجتمع عارفاً بآلامه وآماله .

ولا بد أن تمحص مسائل الصحة والمرض بوسائل إنسانية أخرى غير المجهر وفى غير المعمل . فصحة الناس — وهى أكبر نعم الله — حرية بأن تدرس دراسة علمية واضحة محددة . والطب أقدم العلوم العملية الاجتماعية يزدهر برعاية الناس فى محيطهم حيث يعيشون ويتعلمون ويعملون ويتعاملون . وحملات طب الجماعة وإحصائياته تنشط التعلم وتدفع إلى العمل حين تعرف نتائجها فى خفض الوفيات وتحسين نمو الأطفال وصحتهم ورفع مستوى كفاءة العمال وزيادة الطول والوزن والقوة للمجندين . ويجب أن نجعل لهذه النتائج من الأهمية وحسن التقدير مثل ما تحظى به مستحدثات الطب فى الفحص والتشخيص والعلاج .

وقد لا يمضى وقت طويل إلا وقد نضج طب الجماعة واتضحت معالمه فأصبح علماً إنسانياً رفيعاً قوى الأركان جدير باحترام العلماء كفيلا بشفاء ما فى المجتمع من علل وأدواء .

ومن اليسير الهين أن تأخذ أمم الإسلام من هذا الطب الحديث ما يناسبها لأنه فى جملته يتفق وروح الإسلام وتعاليمه التى تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتمجد الصحة والقوة حيث يقول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم : « المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف » ويقول الله تعالى « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » .

باب الكتب : نقد وتعريف

« تذكرة الدعاة »

للأستاذ البهي الخولي نشر دار الكتاب العربي سنة ١٩٥٢ ٢٧٢ ص ك

هذه مجموعة من الأحاديث ألقاها صاحبها الفاضل على « كتيبة الدعاة » من الإخوان المسلمين ، وموضوعها الوسائل التى تبلغ بهم أن يكونوا دعاة إلى الله وخاتمة رسالاته . والكاتب من الإخوان المجاهدين فى هذا السبيل ، وقد أنعم الله عليه بما يجعله أهلاً للدعوة إليه — فهو كما يقول المغفور له الأستاذ حسن البنا فى مقدمة الطبعة الأولى — : « صافى الذهن ، دقيق الفهم ، مشرق النفس ، قوىّ الإيمان ، عميق اليقين » . ولنا أن نضيف إلى هذا ، أن هذا الكتاب يظهر للقارئ على أن الكاتب متمكن من مادته ، قوى فى أسلوبه ، وقد أفاد كثيراً من علوم النفس والاجتماع والتصوف .

وإذا كانت الدعوة لرسالة أو فكرة تتطلب من الداعية فهما عميقاً لها ، وإيماناً تاماً بها ، ومزاجاً يؤهله للدعوة لها ، وبصراً بعلاج أمراض المجتمع ، وقدرة على توجيه المريدين ، ومصادر يستمد منها ويستلهمها ، ومحاضرات ودروساً ومقالات وأحاديث يعلن بها دعوته ويمكن لها فى النفوس — نقول إذا كان الأمر كذلك ، فقد كان المؤلف موفقاً فى إدارة كتابه على أبواب وفصول تحقق هذا كله وما إليه بسبيل . وبذلك يخرج القارئ للكتاب بثروة كبرى يفيد منها أجل الفوائد ، سواء أ كان داعية أم غير داعية ، وإن كان المؤلف قد توجه به لدعاة الإخوان المسلمين وخطبائهم وحدهم ، وذلك للسبب الذى ذكره بمقدمته .

فهو يتحدث فى الباب الأول (ص ١٣ وما بعدها) عن فقه الدعوة والداعية ، وفيه يُجَـلّى أن الإسلام هو الدعوة العالمية الكبرى . « لتكون نظام الإنسانية الكامل فى حياتها الروحية والمادية » . ثم ينتهى بتقرير أن الداعية يجب أن يشعر بأن دعوته حية فى أعصابه ، متوهجة فى ضميره : فتدفعه إلى الحركة والعمل ، وتشغله بها عن نفسه وماله وولده . وتقرير أن الدعوة هى نقل أمة من محيط آسن خانق إلى المحيط العذب الفسيح الهنيء : من محيط المادية إلى محيط الربانية (ص ٢٦ ، ٢٨)

وفى الباب الثانى (ص ٣١ وما بعدها) ، يتحدث عن منهاج الداعية وما يجب أن يكون عليه ؛ من عقلية واقعية لا نظرية ، وحياة روحانية اجتماعية فلا تعتزل الناس ،

وطبيعة إيجابية تنفيذية لا سلبية . ويعقد لكل من هذه الأسس فصلاً خاصاً ، ويبين وسائل كسبها إن لم تكن فطرية فيه ، والأساليب التى تدخل بها الدعوة إلى القلوب ، وهذه الوسائل والأساليب يستمدها الكاتب من القرآن والحديث والقصص ونحو ذلك كله . وفى مطاوى البحث فى هذا الباب ، نظفر بنظرات صادقة للزهد ، وأنه ليس الكف عن السعى والعزلة ؛ وبمعرفة عميقة لوسائل تحرير القلب من الأهواء الباطلة والشهوات الفارغة (ص ١٢٩ ومابعدها ، ١٣٧ وما بعدها) .

وفى الباب الثالث (ص ٢١٨ وما بعدها) ، يتحدث الكاتب عن مصادر الدعوة ومواردها ؛ من القرآن الكريم ، والسنة المطهرة ، وتاريخ الأمم وسير الأبطال ، وواقع الحياة الجارية . وكل هذا معين لاينضب يمد الداعية بكل ما يعينه على تحقيق دعوته والوصول بها إلى القلوب . وفى حديثه عن القرآن ، يبين كيف ينبغى أن يقرأ « على أنه روح وللروح آثارها ، ومن آثارها الحياة والنمو والقوة ... فعلى القارىء أن يزيل الفوارق والحجب التى تفصل بين قلبه وبين القرآن ، فإذا زالت ... أحس بالحياة والقوة والنور والخشية والحنان تملأ وجوده ، وآية واحدة من كتاب الله كفيلة بهذا لو أحسنا الاتصال بها » (ص ٢٢٠) . فإذا ما انتهى الكاتب من حديثه عن القرآن ، أخذ فى الحديث عما يفيده الداعية من سنة الرسول التى هى المرجع الثانى لعلوم الدنيا والدين ، ومن التاريخ وسير الرجال ، ثم من الحياة العملية (ص ٢٥٣ وما بعدها) .

وهنا ، تصل إلى الباب الرابع والأخير من الكتاب (ص ٢٥٩) ، وفيه يتكلم عن كيفية إعداد الداعية مايتوجه به إلى الناس ؛ من محاضرات ، ودروس ، وخطب ، ومقالات ، وأحاديث عادية . فنحن إذن فى هذا الباب أمام دروس عملية يفيد منها الداعية أيما فائدة حين يتصل بمريديه والناس جميعاً .

* * *

هذا ومن حق هذا الكتاب علينا ، وهو كتاب له خطره وجلالته ، ألا نطوى عن القراء بعض ما نراه فيه مما لا يغض بحال من قيمته ، وهذا ما نوجزه فى هذه الكلمات :

١ — نحن ممن يؤمن بإفلاس الحضارة الغربية فى مجموعها لقيامها على المادة فى جانب كبير منها ، ولكن ليس من الحق أن كل مالهم من فضائل هى « فضائل مزعومة » ، كما يقول الأستاذ (ص ٢٠ — ٢٣) ، ولا أن هذه البلاد الطاغية الكافرة ليس فيها فى الحقيقة أناس ، إنما فيها مردة من الشياطين (ص ٥٨) ؛ ولا أن حضارة الغرب قد خلت عملياً من كل منهاج ووسيلة لإيقاظ الضمائر وتنمية الحواس الباطنة (ص ١١١) إن علينا أن نكفر بالغرب وما قام من حضارته على المادة ، وأن نعتبر الغرب

المستعمر عدواً لنا ؛ وإن كان استعماره يرجع أيضاً إلى ما ابتلى به العالم الإسلامى من ملوك وزعماء آثروا العاجلة على الآجلة ، وباعوا أوطانهم فى سبيل منافعهم الخاصة ، وبذلك مهدوا للاستعمار والمستعمرين . وإن لدى الغرب من الأخلاق فى المعاملات الاجتماعية وغيرها ، ما كنا نحن المسلمين أولى به وما نود أن نصل إليه بعد جيل أو جيلين من هذه الحياة التى نحياها !.

٢ — وإن للغزالى أثره الكبير فى إيقاظ الروح والقلب ، وفى الدعوة إلى تصفية النفوس حتى تكون أهلا لفيض الله عليها ، وفى غير هذا وذاك من العلوم والدراسات التى صار بها بحق حجة الاسلام . ولكن الإشادة بفضل الغزالى وأمثاله من رجالات الإسلام ، لاتتطلب منا أن نغمط أقدار سواهم حتى ولو كانوا من بناة الحياة أو الحضارة المادية . وإذن فليس من الحق فى رأينا أن صفحة واحدة من كتاب « إحياء علوم الدين » للغزالى أرجح فى الميزان من كل ما اخترع « ماركونى »[1] ! (ص ١٦١) وبخاصة ، والإمام الغزالى تتضح كثير من كتاباته بالدعوة إلى الزهد البالغ والانقطاع عن الحياة العملية ، وقد جنح فعلاً إلى هذه النزعة فى حياته كما هو معروف ، وذلك مالم يرضه المؤلف بحق للداعية إلى الله على ما أشرنا آنفاً .

(١) اختلفت زاويتا النظر إلى الميزان فيما يبدو ، فإنه إذا كان المقصود بالميزان ، ميزان ماينفع الناس فى دنياهم فإن لاختراع ماركونى وزنه ولاشك — إذا استعمل فيما ييسر للناس أسباب الخير وحق الإقبال على الله — أما إذا كان المقصود بالميزان ميزان رضا الله عز وجل وحسابه للناس يوم القيامة ، فإننا لانشك فى أن الأستاذ الفاضل الدكتور محمد يوسف موسى يخشى معنا على « ماركونى » من مثل قول الله سبحانه وتعالى « أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا » ولعل ذلك يتضح من مثل كلمات الأستاذ البهى فى باب « النظر فى آيات الله فى الآفاق » :

[وعلم الله مانبخس هذا العلم قدره ، فإنه ضرورى لأداء رسالة معينة ، رسالة يخدم بها الإنسان فى ناحيته المادية والحيوانية ، وهى ناحية قدسها الدين الحنيف إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « إن لبدنك عليك حقا ، وإن لربك عليك حقاً » .

ولا اعتراض لنا على شىء من هذا ، فهو من أمر الله سبحانه وتعالى . . . وإنما الإعتراض أن تزعم لهذا العلم المحصور فى هذه الحدود ، أنه مصدر الحياة والنور لمعانى الإنسان العليا ؟ فهو زعم خاطىء يقع فيه أكثر الناس ، فما كان لعلم مسخر لدواب البدن العمياء ، أن يقوم بما ليس من وظيفته ، ويمنح ما ليس فى طبيعته . . . فمن أين النور لعلم إذا نظر لشىء لا ينظر إلا إلى ناحيته المادية ، يقيسها ويزنها ويستكشف خفايا ذراتها ، ليصل من ذلك فى النهاية إلى نتيجة يذهب نفعها إلى الكيان الحيوانى ، ولا يصل منها أثر يذكر إلى الكيان المعنوى ؟ . . فإذا ترقت الإنسانية بهذا العلم ، فإن ترقيها مشهود به فى قشرتها الأرضية ، وناحيتها المادية فقط ، وهى الناحية ، الصماء التى لا توحى بعاطفة نبيلة ولا شعور كريم] .

٣ — وبعد هذا وذاك ، كنا نود أن يقول : « الأنانية الجماعية » بدل « الجمعية » (ص ٢٢ — ٢٤) ، لأنها نسبة إلى الجماعة ، كما يقال نزعة جماعية مثلا .

* * *

وبعد ! فهذا كتاب كتبه صاحبه وهو يؤمن بكل ما يقول ، وهو ثمرة موهبة ربانية واستعداد قوى أصيل ، وتجارب طويلة عميقة ، وقد سلك فيه بالدعاة الطرق التي تجعلهم بحق دعاة لله وسبيله ودينه الذى ارتضاه لنا . وفيه مع ذلك كله من الإحاطة والعلم والعمق وقوة الروح ما يجعله حرياً بأن يفيد كل قارئ ، وما يجعل قراءته واستيعابه واجباً على كل من ينصب نفسه للدعوة الحقة لله والإسلام بأوسع ما يحتمل « الإسلام » من معان دينية واجتماعية وسياسية .

دكتور محمد يوسف موسى



في جو "إقبال" شاعر الإسلام

أين المسلم الحق ؟

للأستاذ محمد محمود الزبيري

ليس فى عِرْقِ مسلم من دَمٍ باقٍ ولا فى غَرامِهِ من جُنونِ
ما دهى المسلمين أىُّ عدوٍّ نال منهم وأى حَرْبٍ طحُونِ ؟
أىُّ جَيشٍ إلى المشاعر والأعماق وافى وأىُّ غَزْوٍ لعينِ ؟
فصفوفٌ معوجَّةٌ وقلوبٌ ذاهلاتٌ من رِيبَةٍ وظُنونِ
وسجودٌ بلا شعورٍ وتكبيرٌ بلا عزةٍ ولا تمكينِ
أفلَسُوا مِن قوًى لهم عَاشَت الدُّنيا بها فِى حَرارةٍ ويَقينِ

الفقه الإسلامي في ثوبه الجديد

كان هذا العنوان أمنية فأصبح حقيقة ، كان أمنية تهوى إليها النفوس وتهفو إليها القلوب ، فأصبح حقيقة ماثلة بين دفتى كتاب يستطيع كل قارىء أن ينالها وأن يستمتع بجمالها .

وقبل هذا الكتاب كان عشاق الفقه الإسلامى يحاولون أن ينالوه فلا يستطيع أن يناله منهم إلا البعض وقليل ما هم ، لأن الفقه اعتصم من طالبيه فى المتون وتحصن فى الشروح واستعصى على طلابه فى اللغة المغلقة والأسلوب العقيم .

وكان كل من له إلمام بالفقه الإسلامى وكل من عانى من قراءة كتب الفقه الإسلامى يود أن توطأ للناس كتب الفقه حتى يتيسر لهم قراءتها وتسهل عليهم دراستها وحتى يستطيعوا أن يوازنوا بين الفقه الحديث وبين الفقه الإسلامى العتيد ، ذلك الفقه الغنى بموضوعاته ونظرياته واصطلاحاته المتميز بدقته وقوته ، ليكون لهم من هذه الموازنة ما يزيد ثقافتهم ويوسع آفاقهم ويفتح أعينهم ويوجههم إلى الطريق المستقيم .

هذه المشاكل التى كانت تواجه عشاق الفقه الإسلامى والدعاة إليه قد حلها كتاب وتلك الأمانى التى كانت تجيش بها صدورهم قد حققها كتاب ؛ والكتاب الذى حل المشاكل فأحسن حلها وحقق الأمانى فأحسن تحقيقها هو كتاب الفقه الإسلامى فى ثوبه الجديد ، الذى اتخذنا اسمه عنوانا لهذا المقال .

وإذا صح أن الكتاب يقرأ من عنوانه فهذا الكتاب فى نظرى أول كتاب يدل عليه عنوانه حق الدلالة ويعبر عنه كل التعبير . إن عنوانه هو الفقه الإسلامى فى ثوبه الجديد ، وكل عبارة من عباراته وكل فقرة من فقراته وكل صفحة من صفحاته هى الفقه الإسلامى فى أسلوب جديد وعرض جديد وتنظيم جديد وتوجيه جديد أو هى الفقه الإسلامى فى ثوبه الجديد كما شاءت الدقة والإحاطة لمؤلفه أن يسميه .

والكتاب سلسلة كتب ظهر منها حتى الآن المدخل الفقهى العام وكتاب الحق والالتزام والأموال والأشخاص ، وكتاب عقد البيع ، ولا يزال المؤلف يعد كتاب نظرية الالتزام فى الفقه الإسلامى . وطريقة المؤلف فى الإخراج تدل على أنه سيضيف إلى السلسلة عدداً آخر من الكتب .

ولقد وقع فى يدى كتاب المدخل الفقهى العام فوجدت شيئا جديداً وعملا جليلا ، فأما أنه شىء جديد فإن الفقه الإسلامى لم يجر رجاله على هذه الطريقة الحديثة

التى جرى عليها المؤلف ، ولم يأخذوا بذلك التقسيم العصرى الذى أخذ به ، حيث تؤصل المسائل ، وتعرض الكليات ، وتبسط النظريات ، وتشرح المصطلحات ثم تستخرج الفروع من أصولها أو ترد الجزئيات إلى كلياتها أو تطبق النظريات على موضوعاتها فيخرج الدارس من دراسته وقد ألم بالكليات والنظريات وتماسكت فى ذهنه المسائل وارتبطت الفروع بالأصول واستفاد القدرة على حل المشاكل والتمييز بين المتشابه .

واما أنه عمل جليل فلأنه عمل غير مسبوق ، ولإنه يقتضى من صاحبه فهما وعقلا وجهداً وصبراً حتى يصل إلى ما وصل إليه المؤلف من مستوى رفيع ، لا يصل إليه عادة إلا النابهون بعد أن تمهد لهم الطرق ويسبقهم الرواد ، فإذا ما وصل المؤلف إلى ما وصل إليه بعد أن شق طريقه فى الصخر وكان الرائد لنفسه ولغيره فتلك هى العبقرية الفذة أو هو فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

ولقد ساعد المؤلف على الوصول إلى ما وصل إليه أنه رجل ذو هدف فى الحياة وأنه من أصحاب المثل العليا الذين يعملون ويقولون لوجه الله فأمده الله جل شأنه بعونه ورزقه الفهم لدينه وشريعته .

ويلوح أن المؤلف قد عانى من مرارة الاطلاع على كتب الفقه ما عانى فأخذ على نفسه أن يوطىء الفقه لطلابه ، ثم رأى الفقه الإسلامى فى ترتيبه وتبويبه وربط فروعه بأصوله متأخراً قروناً عن الفقه الحديث ، فأخذ على نفسه أن ينقل الفقه الإسلامى عبر هذه القرون الطويلة نقلة واحدة ليلحقه بالفقه الحديث فوفقه الله إلى ما أراد ، فوطأ الفقه الإسلامى لكل طالب ونقله بخطوة واحدة جبارة من العصر العباسى إلى عصرنا الحديث ؛ فإذا هذا الفقه الغنى القوى الذى كان ملتفا فى ثوبه العتيق القديم يخرج على الناس فى ثوبه الجديد فتيا مشرقا يزاحم الفقه كله بمنكبيه ، ويعلن للناس أن فقه الإسلام هو الفقه وأن شريعته هى الشريعة وأن ما اختاره الله للناس هو الخير كل الخير للناس لو كانوا يعلمون .

والمؤلف الجليل يعلم وهو يقدم على هذا العمل الجليل أنه يقدم على عمل أجل وأعظم من أن يقوم به فرد وأن هذا العمل يقتضى أن تتعاون عليه جهود جماعة من الأساتذة العلماء المطلعين على الفقه الإسلامى والحقوق الحديثة فى مصادرها وأساليبها الأجنبية ولكن الحاجة الملحة إلى السرعة ومسابقة الزمن قضت بأن يقدم على حمل هذا العبء الثقيل الذى ينوء بالعصبة أولى القوة مستمداً من الله العون .

ولقد أمده الله بعونه فوفقه إلى أن يخرج كتابا جامعا لأصول الفقه الإسلامى

والنظريات العامة التى تبنى عليها الأحكام فى لغة قوية تسيل عذوبة ورقة وفى تنسيق دقيق وترتيب بديع وربط للفروع بالأصول وسلسلة منطقيه للنظريات والأحكام . ولقد كان هذا الكتاب أول الكتب التى تنقص المكتبة الإسلامية وهو بعد وجوده أول الكتب التى ستبنى عليه النهضة الفقهية الإسلامية ، فدارس الفقه الإسلامى فى حاجة شديدة إلى هذا الكتاب ليعرف الأسس التى يقوم عليها الفقه ولترتبط فى ذهنه بعض هذه الأسس بالبعض الآخر ويتوجه بعد ذلك فى دراسته توجهاً سليما .

وأهم مافى الكتاب أن طلبة كلية الحقوق فى العالم الإسلامى يستطيعون أن يقرءوه فلا يشعرون أنهم يقرأون شيئاً غريباً عليهم ولا بعيداعنهم ، بل لعلهم سيجدون فى قراءته من اللذة العلمية والتعمق الفقهى ودقة التعبير اللغوى والاصطلاحى مايجعلهم يفضلونه على غيره من كتب القانون التى تترجم لهم ولاتؤلف ، بل لعلهم يجدون فيه من الفن والروح مالم يجدوه فى كتاب آخر .



وقد استطاع المؤلف فى سهولة ويسر بما وهبه الله من قوة الفهم وعمق الفقه أن يعرض النظريات الإسلامية العامة كما تعرض النظريات القانونية وأن يصل كل كلية بفروعها وأن يستخرج من الفروع كلياتها معتمداً فى عمله على المذهب الحنفى وإن كان يوازن فى بعض المسائل بين المذاهب الإسلامية ولاينسى فى أكثر الأحوال أن يوازن بين حكم الشريعة والقوانين السورية .

والكتاب بعد ذلك مرتب ترتيباً منطقياً ، فالقسم الأول منه يتكلم عن الفقه ومصادره والترتيب التاريخى لهذه المصادر وتطور الفقه والأدوار التى مرّ بها ومميزاته فى كل دور . والقسم الثانى يتناول النظريات الأساسية العامة : نظرية الملكية وما يدخل تحتها من أسباب الملكية وتقسيم الملك وخصائص الملكية ، ونظرية العقود وما يدخل تحتها من تكوين العقد والإرادة وشوائبها وآثار العقود والفسخ والبطلان وغير ذلك مما تتناوله عادة الكتب القانونية ، ثم نظرية الأهلية والولاية ..الخ وهكذا يسير الكتاب من نظرية إلى نظرية فلا يترك نظرية حتى يوفيها حقها من البحث ويوفى ما يدخل تحتها من فروع حقها من البحث .

ومؤلف الكتاب لاينسى أن يذكر بجوار المصطلح الإسلامى المصطلح القانونى يبين الفرق بينهما فى دقة التسمية وليوسع بذلك معلومات القارئ وينبه ذهنه إلى الموازنة والتعمق فى الفهم .

والمؤلف الجليل الذى بذل هذا المجهود العظيم وأخرج هذا الكتاب الكريم هو

الأستاذ الشيخ مصطفى أحمد الزرقا أستاذ الحقوق المدنية والشريعة الإسلامية فى كلية الحقوق بدمشق .

ولعل هذا التوفيق الذى لازم الشيخ فى إخراج كتابه يرجع أولاً إلى حسن صلة الشيخ بالله ؛ فما يوفق هذا التوفيق إلا رجل يسدد الله خطاه ، ويرجع ثانياً إلى ما أفاء الله على الشيخ مصطفى من فضل الجمع بين دراسة الشريعة الإسلامية والقوانين الوضعية وكل ذلك ساعد الشيخ الزرقا على أن يحلق فى هذا الأفق العالى وأن يقدم للاسلام والمسلمين أجل الخدمات بهذا الكتاب القيم . جزى الله الشيخ عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء ، ونفعنا بعلمه وأمده بالقوة وكتب له التوفيق إنه سميع مجيب .

عبد القادر عوده



آدم عليه السلام

صدر — والحمد لله — كتاب آدم عليه السلام للأستاذ البهى الخولى ؛ فعلى حضرات المشتركين فى الكتاب أن يطلبوه من الأخ محمد عمر بالمركز العام للاخوان المسلمين .

وعلى حضرات الراغبين فى شرائه أن يطلبوه من مكتبة المركز العام . والمكتبات الشهيرة .



* رد كريم
* الإسلام والعروبة
* مجلة الخاصة
* اقتراحات

بعثنا برسالة إلى حضرات الأخوة القراء مع العدد الرابع ، وقد أدينا بهذه الرسالة أمانة تثقل كاهلنا ، وأردنا بها أن نذكر الأخ القارىء بأن «المسلمون» مدرسة قبل أن تكون مجلة ، وبأن من حقها لله أن يقدمها إلى غيره ويضم بذلك إلى أسرة قرائها واحد على الأقل فيكسب بذلك فضل خدمة الفكرة وتبليغ الدعوة ، ويكسب لنفسه أجراً ومثوبة عن كل كلمة خير يقرأها صاحبه فى « المسلمون » . . .

وأثلج صدرنا أن نرى « نفراً كريما » يسارع إلى الرد علينا مشجعا مباركا ؛ وهذه رسالة من الرسائل التى تلقيناها ، من الأخ الأستاذ على محمد سعد المدرس بقلين الابتدائية بغاغة :

... ...

وبعد فقد كان لخطابكم الكريم أثره فى نفسى ، وحمدت الله كثيراً وسألته تعالى أن يكتب لكم التأييد ويمدكم بروح من عنده حتى نبلغ ما نأمله جميعاً من نصر دين الله وإعلاء كلمته — وجدير بمن هو فى مثل إخلاصكم وعلو همتكم أن ينال مبتغاه والله أعلم حيث يجعل رسالته — ولعلك بعد رحلتك الأخيرة متمتع بالصحة والعافية ، نضر الله بالخير أيامك . ويسرنى أن أرفق مع هذا إذن بريد بمبلغ جنيهين مصريين قيمة اشتراك . . . و . . . . والسلام عليكم ورحمة الله .

***

شكر الله لك يا أخى على ! وللاخوة الذين بادروا إلى الرد مشكورين مأجورين . .

ونحن نرجو أن يعتبر كل أخ قارىء من أسرة « المسلمون » نفسه أمينا على رسالة المجلة ، مسئولا أن يبلغها ؛ ولأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك من الدنيا وما فيها .
ثم إن وسائل النشر ومعرفة أهل الاستعداد للخير فى كل مكان أمر صعب لا يتيسر لنا ، ولكنه سهل إن شاء الله إذا وفق الله وأعاننا عليه إخوتنا الأعزة : كل فى مكانه وفى دائرة أهل الخير الراغبين فى المعرفة ، والحائرين على مفترق الطرق ، ونستطيع أن نؤكد والحمد لله — وله وحده الفضل والمنه — أن كل من أتيح له أن يطلع على « المسلمون » بادر إلى الاشتراك فى حرص كريم ، وإذا كنا قد عدلنا عن بيع المجلة فى الأسواق لاعتبارات ذكرناها من قبل ، وتفاديا لمؤمرات شركات التوزيع ، فإنا نرجو أن يجد الناس فى إيمان قراء « المسلمون » وغيرتهم أسلوبا جديدا من أساليب الإذاعة والتبليغ .

وفى رسالة من السيد عبد السلام الهراس : كلية الشريعة بيروت يتحدث عن مكان فكرة العروبة من رابطة الإسلام ويخشى من نوازع القومية على بعض الشباب المثقف الذى يرتمى فى أحضان كل جديد لأول وهله عندما يسمع أنه بنى على قواعد « فلسفية » وأفكار « عميقة » ونظريات « تقدمية » مغترا بهذه الألفاظ التى تلعب بفكره فتضله . ويقول إن أهم ماتعتمد عليه الدعوة إلى العروبة شيئان : اللغة والتاريخ . . وقد نسى هؤلاء أو تناسوا أن القرآن هو الذى حفظ العربية وجعلها لغة حية وفرضها على شعوب لولاه ماتكلمت بها ومارضيتها . وأما التاريخ فلا أظن دعاة القومية العربية فى تاريخ العرب قبل الإسلام أساساً كافيا يقيمون عليه دعوة أو يحفزون به همة . وإنما التاريخ الذى يستقون منه سر قوميتهم ويفتخرون به هو تاريخ الإسلام ، فلماذا لايدعون إلى الإسلام الذى جمع شمل العرب وأكمل فضائلهم وكانوا به خير أمة ؟؟

***

هذا حق ، وهى لفتة كريمة إلى موضوع نرجو أن يهتم به دعاة الفكرة الإسلامية ، وإن يتناولوه بما يرد على الناس إيمانهم بالحق وارتباطهم حوله . على أننا نعتقد أن أفعل أسلوب فى معالجة ذلك هو إثارة المعنى الربانى فى الأنفس . فهو الذى يضع الآصرة العميقة التى تربط الناس من وراء الفكر والمصالح المتغايرة ، والتى لا تعرف إلا الحدود بين الحق والباطل والخير والشر ، وهو الذى جمع بلالا وسلمان وصهيبا إلى جانب

أبى بكر وعمر فى حجر الإيمان : « إنما المؤمنون إخوة » ... وكانت أخوة مشرفه نضرة تنكر كل عصبية غير عصبية الإيمان ، وقد رأينا كيف غضب رسول الله صلى الله عليه وسلم حين تداعى الأوس والخزرج بأنسابهم وقال : « دعوها فإنها منتنة » !!

وعلى الدعاة مع ذلك أن يستحضروا شواهد التاريخ فى فضل الإسلام على العرب ، والأمثلة الحية مما تعانيه البشرية اليوم من سعرة الشهوات التى تسهر على تغذيتها الشعوبية البغيضة والتكتلات المصلحيه دون اعتبار للحق ولا للقيم الإنسانية الرفيعة ...

ومع تحية جميلة من السيد الفضال الأستاذ شيخ علوى بن طاهر الحداد مفتى حكومة جهور بالملايو ، يبدى سماحته استبشاره بمجلة « المسلمون » ويرى فيها طليعة فتح مبارك للدعوة الإسلامية فى العالم الإسلامى كله ويوافق سماحة السيد عبد الله بن كنون عالم طنجة — فى رسالته التى جاءت فى ندوة المجلة — على أن « المسلمون » مجلة خاصة رفيعة المستوى . ولكنه يرى الحرص على هذا المستوى ، ويرى أن المجلة بذلك ستكفل لدعاة الحركة الإسلامية نضجا يحتاجون إليه ووحدة فى الفكر والرأى لابد منها ، وعلى تلامذة « المسلمون » بعد ذلك أن يبسطوا معانيها المركزه للعامة محتفظين بالروح المشرقة التى تملأها ، والفكر الرشيد الذى تحويه .

***

ونحن نشكر للسيد المفضال تحيته وتشجيعه الكريم .. ونسأل الله أن تحقق المجلة رسالتها فى هذا المجال .. ولعلها بذلك تقوم على ثغرة لايقوم عليها غيرها ، والله المسئول أن يهىء من يقوم على سائر الثغور .

ويقول الأخ السيد هاشم مهدى السامرائى فى رسالة رفيعة من سامراء بالعراق :

وبعد : فما فتئنا بين الفينة والفينة نطالع مجلة « المسلمون » تلك المجلة التى ما أحوج المسلمين فى هذه الظروف الدقيقة إلى أمثالها والتى كان قبل صدورها فى مجال المجتمع فجوة لم تتمكن صحيفة ناطقة بالإسلام الصافى نطقاً خالصاً أن تسده ما خلا مجلات هن دون أصابع الكف ، ولقد كانت أسواقنا ودور كتبنا وبيوتنا معمورة بمجلات الخلاعة والمجون ، والتى هى إلى قتل الرجولة أقرب منها إلى إلى تقويمها .

ولكن الأمد لم يطل حتى قدم اليوم السعيد ، وإذا بسعيد يصدر مجلته الكريمة ، التى كانت من أول بزوغها إلى عالم الواقع سيفاً مصلتاً على رقاب شياطين الإنس وجنود الإلحاد والضلال والانحلال ، وبوقاً للنذير الذى ينذر أعداء الله بأن غادروا ساحة الإسلام الرحيبة ، وخلوا زاية الإسلام تلوح فى الخافقين .

أرانى استطردت فى الكلام . ولكنى أعود فأقول لقد ظهرت مجلة «المسلمون» فى ظروف متأرجحة مضطربة وتبلبل فى الأفكار حتى خيل للفاحص بأن معتقدات الناس أصبحت أشبه شىء بدور المراهقة الذى يمر به الشباب . لقد ظهرت «المسلمون» تجلى الران المتكاثف عن قلوب المسلمين بما تقدمه لهم من الزاد الروحى والعقلى . من مناهل الإسلام الرحبة الخالصة . من ذلك النبع الصافى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وسير الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم أجمعين ، ولا أرانى إلا أن أردد ما ردده غيرى حول هذه المجلة المباركة بأن : «المسلمون» مجلة الفكرة الإسلامية فى أسمى معانيها .

ولكنى هنا أستأذن أخى الكبير ليسمح لى أن أبدى له اقتراحين فقط وهما :

١ — يتعذر على قسم ليس بالقليل الاطلاع على المجلة والاستفادة منها . فنستأذنك بأن تعمل على إيصالها إلى كل مكان حتى تكون الفائدة أعم .

٢ — ونستأذنكم بأن تفتحوا باباً جديداً فى صفحات هذه المجلة المباركة وكان هذا الباب سابقاً مفتوحاً على صفحات مجلة الشهاب التى كان يصدرها الإمام الشهيد حسن البنا عليه رضوان الله ، ألا وهو باب سجل التعارف الإسلامى الذى كان يتحفنا بمعلومات قيمة عن حياة دعاة الفكرة الإسلامية فى أقطارهم . وكذا عندى اقتراحات كان قد أبداها غيرى من القراء وعملتم بها والحمد لله وفى النفس هواجس وفى القلب مسرات نمسك عن ذكرها . خوف الإملال وضيق المجال . ونسأل الله تعالى أن يطيل فى عمركم ياسعيد ويعينكم على الاستمرار فى إصدار المجلة فى هذه الأوقات العصيبة . التى يتطلب فيها من المسلمين أن يعضوا على دينهم بالنواجز . . . . ؟

والسلام عليكم ورحمة الله

* * *

أما الاقتراح الأول فنحن نعمل على معالجته بكل مالدينا من وسائل ، والمجلة تشق طريقها إلى أطراف الدنيا والحمد لله . . . ولكنها لاتزال تحتاج إلى عناية الإخوة القراء فى تقديمها إلى من يتصلون بهم ، ويسعدنى أن نتلقى كل اقتراح عملى يحقق ماننشده للمجلة من انتشار .

أما الاقتراح الثانى فهو موضع دراستنا . وجزى الله الأخ السيد هاشم كل خير .

مع العارفين

الإمام الممتحن : أحمد بن حنبل

بين فتنة الجاه وفتنة المال

ظهر إفك المعتزلة وكذبهم على أحمد ، فأرسل إليه الخليفة المتوكل كتابا يقول فيه : «قد صح نقاء ساحتك ؛ وقد أحببت أن آنس بقربك ، وأتبرك بدعائك ؛ وقد وجهت إليك بعشرة آلاف درهم معونة على سفرك » .

وهكذا انتهت محنة الحبس والاضطهاد عن أحمد ؛ وبدأت الأيام تقبل عليه بلون آخر ، ووجه جديد . .

بدأ الجاه الواسع ، والكرامة الجزلة ، والمال الكثير يخطب وده . . . وأقبل الخليفة يمد إليه يده بكل ذلك . . .

وفرح آل أحمد بالعافية تقبل مع السعة والجاه ، وحل بالدار نشاط وأنس ، ودب فيها بعد الوحشة دبيب الحركة بمن صار يغشاها من رسل الخليفة وكبار رجال الدولة . وكان ذلك حريا أن يمس حياة الإمام بشيء من النضارة والسعة عقب ما قاسى فى السنين الطوال العجاف من قسوة وضيق ومناوأة . . . ولكن هيهات ! . . فقد تألق أحمد على المحنة ، وصفا وأشرق ، وسما عن دنيا الناس ، ولم ير فى إقبال هؤلاء عليه إلا إقبال محنة من لون آخر لا يعصم من شرها إلا الله . .

قال ابنه صالح : « لما جاء كتاب المتوكل بالمال نادانى أبى فى جوف الليل ، فقمت إليه ، فإذا به يبكى ؛ فلما رآنى قال : ما نمت ليلتى هذه !. . . سلمت من هؤلاء حتى إذا كان فى آخر عمرى بليت بهم . . ! ؟ »

فلما كان الصباح جاء الحسين البزار والمشايخ ، فقال : يا صالح ! جئنى بالميزان وبالدراهم . . ثم أخذ يزن المال ، ويقول وجهوا هذا إلى أبناء المهاجرين . . وهذا إلى أبناء الأنصار . . وهذا لفلان ليفرق فى ناحيته . . وهذا لفلان . . وهكذا حتى فرقها كلها . . . فلما أحس أنه فرق معها كربته تنفس الصعداء ، ونفض الكيس ، ثم تصدق به . .

قال صالح : ونحن فى حالة الله بها عليم ؛ فجاء ابن له صغير ، فقال : يا أبت ، اعطى درهما ؛ فنظر إلىّ ، فأخرجت قطعة من جيبى أعطيته إياها .

وبلغ الخبر المتوكل ؛ فقال على بن الجهم — وكأنه يريد أن يزيل شيئاً علق بنفس الخليفة — يا أمير المؤمنين ، مايصنع أحمد بالمال — وقوته رغيف — إلا أن يتصدق به ؟ وقد عرف الناس أنه قبل منك الصلة ولم يردها .. !

قال الخليفة : صدقت . .

***

وكان لابد لأحمد من تلبية أمر الخليفة ، لا خضوعا لقوة السلطان ، بل وفاء لحق السمع والطاعة الذى فرضه الإسلام لولى الأمر فى غير معصية .. فخرج من بغداد إلى سامرّا ، ومعه يعقوب المعروف بقوصرة ، وهو الرسول الذى حضر إليه من لدن الخليفة بالمال والخطاب ؛ وخرج معه بعض بنيه .

وكان يعقوب شديد السرور والزهو بنجاح مهمته ، فقد قبل أحمد بن حنبل أن يخرج معه .. وكان يدرك مبلغ السرور الذى سيدخل قلب أمير المؤمنين بذلك ؛ فلما صار على مقربة من سامرا أراد أن يعجل البشرى بقدوم الإمام .. وحدثته نفسه أن يجعل تلك البشرى مضاعفة الأثر ، حافلة بأسباب المسرة ؛ فما أحسن أن يكتب أحمد بنفسه كتابا للخليفة — وهو فى طريقه إليه — بما شاء من الثناء والتقدير ، ومعانى الولاء لسلطانه ! . .

وراقت الفكرة ليعقوب ، فطار لها لبه ! ... أليس يرى الخليفة فيها أكثر مما كان يطمع من أحمد ؟ .. وأقبل يعقوب على الإمام . . .

يالله ! .. إن الإمام فى واد غير وادى الناس ، وكرب يزداد ساعة بعد ساعة كلما اقترب من دار الملك .. ولقد غطى رأسه بغطاء غليظ ، ونكسه لا يرفعه فى أحد . . وألقى يعقوب كلماته التى يريد ، واقتحم بها عليه عزلته وكربته ، فإذا الإمام يضيق بتفاهة ما يفكر فيه الناس ! ، فلم يلتفت إلى الكلام ، ولم ير صاحبه جديرا بأن يرد عليه بشىء ! .. فغضب يعقوب وأخذته العزة بالإثم . . وأقبل على صالح يقول له : « ما رأيت أعجب مما نحن فيه ! . . أسأله أن يطلق لى كلمة أخبر بها أمير المؤمنين ، فلا يفعل ؟ ! » .

***

نزل الإمام « بسر من رأى » ضيفا على أمير المؤمنين ، .. ولم يكن للخليفة من هم — بعد أن عرف كل شىء عن أحمد — إلا أن يرضيه ، وأن لا يحمله على شىء

يكرهه .. وحسبه أن يعلم عامة الناس أن أحمد بن حنبل فى ضيافته ، فهذه الضيافة وحدها لها من التفسير والتأويل عند الجمهور ما يتوطد له الملك ، ويستقر عليه أمر السلطان . . .

عرف الخليفة أن أحمد لا يقبل ماله ، فلم يكن له بد من النزول على رغبته واحترام إرادته ؛ ولكن لابد من أن يصله فى قرابته ، فليكن المال لأهله وبنيه دون أن يعلم ...

وتسلم صالح ابنه — بأمر الخليفة — عشرة آلاف على الفور مكان التى فرقها أبوه ببغداد على أبناء المهاجرين والأنصار وسواهم .

وعرف رجال القصر لهفة الخليفة على أحمد ، وشدة إقباله عليه ، وإكباره له ؛ فأقبلوا عليه بمثل ما أقبل سيدهم ؛ كل يخطب وده ، ويبتغى إليه المنزلة ، ويحاول أن يسره بما يستطيع .

فهذا وصيف — عاهل رجال القصر — يرسل ابن هرثمة حاملا إليه التحية ويقول: « الحمد لله الذى لم يشمت بك الأعداء ، أهل البدع ... قد علمت من حال ابن أبى دؤاد ، فينبغى أن تتكلم فيه ما يجب لله » .

والقوم لا يدركون أن أحمد قد وهب لله ما لقى بسبب ابن أبى دؤاد من السجن ، والتعذيب ، والاعتقال ، وضروب المحن ، وسما بذلك عن الثأر والضغينة ؛ فليس فى قلبه من موجدة لخصمه القديم العتيد ... وليس لتلك الوسائل التى يتقربون بها إليه ، ويثيرون بها إحن الماضى أقل نصيب من عنايته أو احترامه .

ويجىء من رجال القصر من يسأله رأيه فى ابن أبى دؤاد ، وفيما اقتنى من الأموال والضياع والجواهر ، فلا يجيب . . !

ويجىء يعقوب وسواه ليحدثوه بما يجرى لابن أبى دؤاد من المحن ... فمرة قد أشهد عليه ببيع ضياعه ... وثانية قد أُخذ إلى بغداد مقبوضاً عليه ... وأخرى ...

كل ذلك والإمام فى أفقه العالى لا يزيده سماع الرياء والسفساف إلا زهداً وانقباضاً وضيقاً بما يحيط به من أجواء النفاق والملق وأسباب الفتن والبلاء .

أمر الخليفة أن تفرش الدار التى هيئت له بالفرش الوثيرة ...

وأن ترتب له ومن معه من بنيه مائدة شهية واسعة ...

وأمر أن يقطع له ملابس فاخرة : طيلسان وقلنسوة وشارات رسمية من السواد الذى اتخذته الدولة العباسية شعاراً لها .

ويحضر يحيى بن خاقان فيقول : إن الخليفة أمرنى أن أصير لك مرتبة فى أعلى ،

ويصير ولده المعتز فى حجرك ، تؤدبه بما شئت من أدب القرآن وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

إنها الدنيا تقبل بالجاه الجزل ، والمقام المرموق ، وتتبرج له بكل ما تستطيع من زينة ، علها تظفر منه ولو بلفتة ، أو لحظة من جانب الحدق !.

وجاء يحيى فى اليوم التالى يدعوه أن يركب إلى دار المعتز ، ويقول فى لهجة مهذبة : تركب يا أبا عبد الله ؟

فيقول الإمام : ذاك إليكم .

وكان يوماً مشهوداً فى القصر ... ألبسوه هناك الطيلسان ، وما أمر له به الخليفة من ألوان الثياب والشارات ... ويقول بعض الخدم : إن الخليفة كان مع أمه مستترين خلف ستار من ستر القصر ، يرقب فى خفاء ما يكون من أحمد ؛ فلما رآه يدخل ، أخذته رجفة ، وغشيته هزة من الفرح ، ولمع السرور فى عينيه وقال : « يا أمَّه ، قد أنارت الدار بدخول أحمد ! » .

إذا جاز أن يعتذر الدهر لإنسان عن إساءة أسلفها إليه ، فهل يعتذر بمثل ما يعرض اليوم على أحمد بن حنبل من الكرامة المقبلة بلا قيد ولا شرط ؟ . . .

يقول ابنه صالح : لما عاد أبى من القصر إلى الدار التى أعدت له نزع عنه الثياب التى أنعم بها عليه ، وجعل يبكى ويقول : « سلمت من هؤلاء منذ ستين سنة ، حتى إذا كان فى آخر عمرى بليت بهم ؟... ما أحسبنى سلمت من دخولى على هـذا الغلام ، فكيف بالخليفة الذى يجب على نصحه من وقت أن تقع عينى عليه إلى أن أخرج من عنده ؟ » .

ثم التفت إلى الملابس وقال لابنه : « وجه بهذه الثياب إلى بغداد ، فبعها وتصدق بثمنها ، وحذار أن يشترى أحد منكم شيئاً منها ! » .

« يتبع »

أحسن الظنون

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه وصـدق ما يعتاده من توهم

وعادى محبيـه بقول عداته وأصبح فى ليل من الشك مظلم

وا إسلاماه ! !

للشاعر الأندلسى أبى البقاء الرّندىّ

[... « والعداء » الذى عاناه الإسلام والمسلمون قديم ، بدأت طلائعه مع طلائع الإسلام فى حجر نبيه صلى الله عليه وسلم ... واستمرت المعركة بين العقيدة وأعدائها ، واختلفت مظاهرها ، ولكن طبيعتها بقيت واحدة لا تتغير ... ومضت المعارك واتصلت حلقاتها ، وتألبت على المسلمين قوى وهيئة ما أكثر ما اختلفت فيما بينها ، ولكنها اتفقت دائماً على مطاردة الإسلام ، ولم تأل جهداً فى استئصال شأفته(١)

والقصيدة التى ننشرها هنا قطعة أندلسية رائعة يطالع فيها المسلم صورة حية لمجد ذوى ، وأمة نكل بها وانتهكت حرماتها ... ولقلب دام جريح]

لكل شيء إذا ما تمّ نقصانُ ... فلا يُغَرَّ بطيب العيش إنسانُ

هى الأمور كما شاهدتها دول ... من سرّه زمن ساءته أزمان

وهذه الدار لاتبقِي على أحد ... ولا يدوم على حالٍ لها شانُ

أين الملوك ذوو التيجان من يمنٍ ... وأين منهم أكاليل وتيجان ؟

وأين ماشاده شدّاد فى إرم ... وأين ماساسه فى الفرس ساسان ؟

وأين ما حازه قارون من ذهب ... وأين عاد وشداد وقحطان ؟

أتى على الكل أمر لا مردّ له ... حتى قضوا فكأن الكل ما كانوا

وصار ما كان من مُلْك ومن مَلِكٍ ... كما حكى عن خيال الطيف وَسْنانُ

كأنما الصعب لم يسهل له سبب ... يوماً ولا ملك الدنيا سليمان

فجائع الدهر أنواع منوعة ... وللزمان مسرات وأحزان

وللحوادث سلوان يسهلها ... وما لما حلّ بالإسلام سلوان

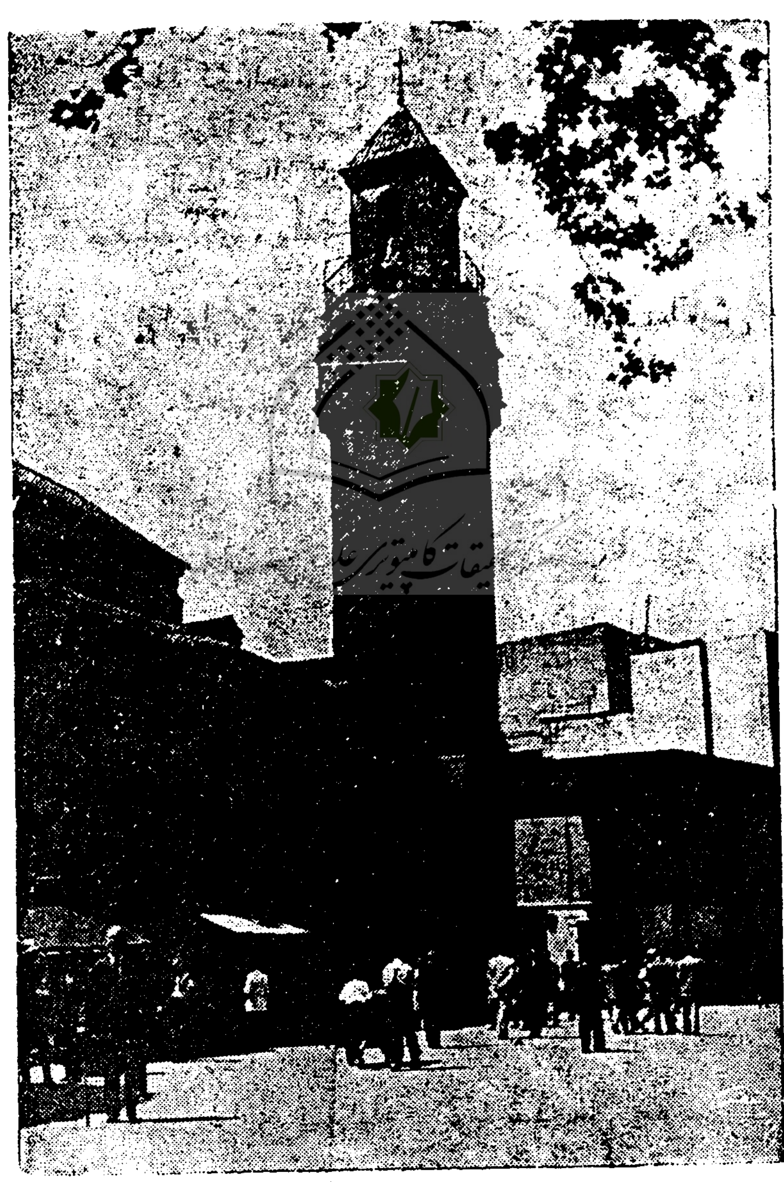
دهى الجزيرة أمرٌ لا عزاء له ... هوى له أُحدٌ وانهدّ ثهلانُ

أصابها العينَ فى الإسلام فارتزأت ... حتى خلت منه أقطار و بلدان

---

(١) اقرأ « المسلمون » العدد الأول ، السنة الثانية ص ١٠٠ .

فاسأل بلنسيةَ ما شأن مُرسيةٍ وأين شاطبةٌ أم أين جيّانُ ؟
وأين قرطبة دار العلوم ، فكم من عالم قد سما فيها له شانُ ؟
وأين حمص وما تحويه من نُزَهٍ ونهرها العذب فياض وملآنُ ؟
قواعد كن أركان البلاد فما عسى البقاء إذا لم تبق أركان ؟ !
تبكي الحنيفية البيضاء من أسف كما بكى لفراق الإلفِ هيمانُ
على ديار من الإسلام خالية قد أقفرت ولها بالكفر عُمران



من مشاهد قرطبة : كان مسجداً ! !



حيث المساجد قد صارت كنائس ما فيهن إلا نواقيس وصلبانُ
حتى المحاريب تبكي وهي جامدة حتى المنابر ترثى وهي عيدان

يا غافلاً وله فى الدهر موعظة — إن كنت فى سِنَةٍ فالدهر يقظان

وماشياً مرحاً يلهيه موطنــه — أبعد حمص تغر المرء أوطان ؟ !

تلك المصيبة أنست ما تقدمها — وما لها مع طول الدهر نسـيان

* * *

يا راكبين عتاق الخيل ضامرة — كأنها فى مجال السبق عقبان

وحاملين سـيوف الهند مرهفة — كأنها فى ظـلام النقع نيران

وراتعين وراء البـحر فى دعةٍ — لهم بأوطانهم عز وسـلطان

أعندكم نبأ من أهل أندلس — فقد سرى بحديث القوم ركبان ؟

كم يستغيث بنا المستضعفون وهم — قتلى وأسرى فما يهتز إنسان

ماذا التقاطع فى الإسلام بينكمو — وأنتمو يا عباد الله إخوان ؟

ألا نفوس أبيـات لها همم — أما على الخير أنصار وأعوان ؟ !

يا من لذلة قوم بعـد عزهم — أحال حالهمُ كفرٌ وطغيان !

بالأمس كانوا ملوكاً فى منازلهم — واليوم هم فى بلاد الكفر عبدان

فلو تراهم حيارى لا دليل لهم — عليهمُ من ثياب الذل ألوان

ولو رأيت بكاهم عنـــد بيعهم — لهالك الأمرُ واستهوتك أحزان

يا رُب أمّ وطفلٍ حيل بينهما — كما تفرّقُ أرواح وأبدان

وطفلة مثل حسن الشمس إذطلعت — كأنما هى ياقوت ومرجان

يقودها العلج للمكروه مكرهة — والعين باكية والقلب حيران

لمثل هذا يذوب القلب من كمدٍ — إن كان فى القلب إسلام و إيمان

السودان المسلم

للأستاذ محمد الخير عبد القادر

(٢)

استعمار مقنع :

التجاوب التاريخى هو السمة البارزة فى تاريخ العلاقات بين شمال وادى النيل وجنوبه ، فكل حادثة فى الشمال لها صدى قوى فى الجنوب والعكس صحيح . وما كاد الاستعمار البريطانى ينعم باحتلال شمال الوادى ستة أعوام حتى امتد أخطبوطه إلى الجنوب تحت ستار « استعادة السودان » والقضاء على الثورة المهدية ، وإذا بالقوات الإنجليزية شريكة للقوات المصرية فى قمع الثورة المهدية وإن كانت مصر هى التى تحملت العبء الأكبر من تكاليف الفتح ونفقاته ، ولكن الإنجليز استطاعوا — بخبثهم السياسى — أن يستأثروا باستعمار السودان تحت اسم « الحكم الثنائى » حتى لم يعد لمصر — وهى أحد طرفى الحكم الثنائى — فى حكم السودان غير المشاركة الاسمية . وهكذا خضع جنوب الوادى بمقتضى اتفاقية سنة ١٨٩٩ للحكم الثنائى الذى فوضت فيه الرئاسة العليا العسكرية والمدنية إلى موظف يلقب « حاكم عموم السودان » يعين بأمر عال خديوى بناء على طلب حكومة جلالة الملكة ولا يفصل عن وظيفته إلا بأمر عال خديوى يصدر برضاء الحكومة البريطانية (١) .

ذلكم هو الحاكم العام الإنجليزى الذى ما زال يتربع على كرسى الحكم فى السودان يصرف شئون البلاد بالاشتراك مع عدد من معاونيه البريطانيين الذين تتركز فى أيديهم جميع السلطات التنفيذية والتشريعية والقضائية ويلقبون « سكرتارين » . فهذا السكرتير الإدارى (وزير الداخلية) وذلك السكرتير القضائى (وزير العدل) وثالث السكرتير المالى (وزير المالية) . هؤلاء السكرتاريون وعلى رأسهم الحاكم العام هم الحكام الحقيقيون المسيطرون على سياسة البلاد الداخلية والخارجية . وكل ما يذكر عن حدوث تطورات دستورية تمثلت فى المجلس الاستشارى لشمال السودان وفى الجمعية التشريعية المنحلة وفى دستور الحاكم العام الذى رفضه الشعب السودانى بالإجماع كل ما يقال عن هذه المؤسسات لا يغير من الحقيقة شيئا وهى أن الحاكم العام ومعاونيه هم المسيطرون فعلا على سياسة البلاد .

وإذا كانت جيوش الاحتلال قد قضت على الثورة المهدية من الناحيتين الحربية والسياسية فإن قيام دولة الحكم الثنائى كان إيذانا بانتقال المعركة من الميدان الحربى والسياسى إلى الاجتماعى والخلقى . وذلك أن دولة الحكم الثنائى الممثلة فى الحاكم العام الإنجليزى كانت تدرك من أول وهلة أنها ليست إلا امتدادا لحركة التوسع الاستعمارى الكبرى التى التهمت العالم الإسلامى خلال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين وكانت تدرك أيضا أن الشعب السودانى الذى تتحكم فى مصيره إن هو إلا جزء من العالم الإسلامى الذى حاربته أوربا الصليبية فى العصور الوسطى وأذاقته أوربا الاستعمارية صنوف العذاب فى العصر الحديث . فى ضوء هذه الحقائق حددت دولة الحكم الثنائى سياستها فى جنوب الوادى وهى لاتعدو أن تكون انعكاسا للسياسة الاستعمارية فى الشرق الإسلامى بوجه عام ، تلك

(١) المادة الثالثة من اتفاقية سنة ١٨٩٩ — انظر مكى شبيكة : السودان فى قرن ص ٣٠٣ .

السياسة التى تهدف أساسا إلى استغلال موارد هذا الشرق واحتكار أسواقه لحساب المصانع الأوربية وامتصاص دم أبنائه لإشباع المعدات الأوربية الخاوية ولكى تحقق هذا الهدف كان لا بد لها من الالتجاء إلى وسيلتين أولاهما إقصاء الدين عن دائرة الحياة السياسية والاجتماعية وصرف الأنظار عن جوهر الإسلام وشموله إلى مظاهر جوفاء وطقوس جامدة يتلهى بها الشعب الجاهل ريثما تتوطد دعائم الحكم الثنائى الجديد أو بعبارة أدق ريثما تتوطد أركان الاستعمار البريطانى فى السودان . ولعل هذه الوسيلة هى التى يعنيها Bowman — وهو أستاذ جامعى أمريكى — بقوله : « إن البواعث الدينية فى العالم الإسلامى لها أهمية خاصة بالنسبة للسياسة البريطانية والفرنسية فى الحوض الشرقى للبحر الأبيض المتوسط وخاصة على الطريق الموصل إلى الهند لأن الإسلام دين قوة ونفوذ سياسى [١] » . أما الوسيلة الثانية التى يلجأ إليها الإستعمار لتحقيق أهدافه فى جنوب الوادى فهى صبغ الحياة السودانية بصبغة زائفة من الحضارة الأوربية وتوجيه المجتمع السودانى نحو مفاسد هذه الحضارة ومغرياتها باسم التقدم والرقى فتضن حكومة السودان الإنجليزية بمنح الرخص لبناء المدارس والمعاهد التى تخرج عن نطاق إشرافها بقدر ما تسخو فى تشجيع حانات الخمور وبناء مصانعها . ومراكب الشحن فى السكك الحديدية السودانية تغلق أبوابها فى وجه السلع الضرورية فتظل متراكمة على ميناء بور سودان شهوراً وشهوراً لأن أفضلية الشحن من الميناء إلى مدن السودان وأريافه محفوظة « للبيرة » التى تدر على الحكومة ضرائب جمركية باهظة .

فى ظل هذه المبادىء التى تسترشد بها دولة الحكم الثنائى قبع السودان خمسين عاما أو تزيد لايتقدم ولايتحرك إلا بقدر مايخدم مصالح الامبراطورية . فالسياسة التعليمية التى يشرف عليها مدير انجليزى ترسم بما يتمشى مع ظروف وتطور أساليب الاستعمار . فتكون مهمة التعليم فى بادىء الأمر إخراج موظفين يديرون دفة العمل الحكومى : « يجب أن نعلم الطلبة مايؤهلهم لخدمة الحكومة فى الوظائف الكتابية الصغرى بمرتبات تقل عن مرتبات الكتبة الذين يؤتى بهم من الخارج[٢] » وقد نفذت مصلحة المعارف (وزارة المعارف السودانية) هذه السياسة التعليمية حتى أن مخصصات التعليم فى ميزانية الحكومة إلى سنة ١٩٤٦ لم تتجاوز ٥٪ وعدد الأطفال الذين تتاح لهم فرصة التعليم الأولى لايزيد على ١٪ من عدد الأطفال الصالحين للتعليم فى البلاد .

أما عدد المدارس الوسطى وهى مادون الثانوية فلايربو عددها على إحدى عشرة مدرسة فى جميع أنحاء السودان حسب إحصائية عام سنة ١٩٤٦ وهى لا تزيد اليوم على هذا العدد زيادة تذكر . ولقد تفتق ذهن اللورد كتشنر أول حاكم عام للسودان عن فكرة مشروع لتخليد ذكرى سلفه غردون ، واستقر الرأى على أن تؤسس مدرسة ثانوية فى الخرطوم تحمل اسم غردون ، وشكلت لجنة لتنفيذ هذا المشروع الذى وصفه رئيس وزراء بريطانيا فى ذلك الوقت بقوله إنه مشروع « فرضته علينا التزاماتنا الامبراطورية فهو محاولة لإزالة مابين الشعوب من حواجز وإقامة رابطة من المعاونة الفكرية ونشر الثقافة الإنسانية[٣] » وهكذا تأسست «كلية غردون التذكارية» عام ١٩٠٢ كمدرسة ثانوية وظلت كذلك حتى سنة ١٩٤٥ ثم تحولت إلى كلية جامعية تابعة لجامعة لندن فى عام ١٩٤٨ وتضم أقساما للتخصص فى الآداب والعلوم والهندسة والقانون والزراعة والطب البيطرى ولايتجاوز عدد الطلاب فى هذه الأقسام مجتمعة على أربعمائة طالب . وهناك ثلاث مدارس

(١) Bowman : The New World ,p.p. 5,9.

(٢) تقرير كرومر إلى الحكومتين المصرية والإنجليزية سنة ١٩٠٤ .

(٣) « السودان فى قرن » مكى شبيكة ص ٣٢٨ .

ثانوية تابعة لوزارة المعارف السودانية ويبلغ متوسط طلبة كل منها نحو أربعمائة طالب بالإضافة إلى مدرستين ثانويتين أهليتين ، وتلك هي كل ثروة السودان من التعليم الثانوى . أما الطب فقد تأسست له مدرسة سنة ١٩٢٤ تسمى « مدرسة كتشنر الطبية » ولكن القبول فيها ليس رهينا بحاجة البلاد إلى أطباء ، وإنما هو رهين بمشيئة دولة الحكم الثنائى ، فعاما تفتح المدرسة أبوابها لقبول الطلبة الجدد ، ثم توصد الأبواب فى العام التالى أمام المقبلين عليها ، وقد يمتد حرمان هؤلاء إلى عامين وحتى الذين يسعدهم الحظ بالقبول يمكن عدهم على الأصابع . أما عدد الأطباء المتخرجين فى هذه المدرسة منذ تأسست عام سنة ١٩٢٤ حتى عام سنة ١٩٤٦ فلا يزيد على مائة طبيب وعشرة .

وقد يقال إن التعليم بوجه عام تطور وتقدم فى السودان فأصبحت هناك مدارس ثانوية وكليات جامعية ، ولكن هذا التطور ناجم عن تطور أساليب الاستعمار لا عن رغبة صادقة فى النهوض بالشعب السودانى ، فهو إذن تطور أملته ظروف استعمارية معينة ولم تمله طبيعة الأمة السودانية المسلمة . صحيح أن الحكومة لم تعد فى حاجة إلى مدارس لتخرج لها موظفين ، ولكنها أصبحت فى أمس حاجة إلى عقليات سودانية مشبعة بالثقافة الإنجليزية ، وفى حاجة إلى قلوب سودانية تنشد مثلها الأعلى وفردوسها المفقود فى الحضارة الأوربية بخيرها وشرها ، وأخيراً هى فى حاجة إلى ساسة سودانيين يبشرون برسالة الاستعمار نحو الشعوب المتأخرة وإلى أساتذة ينيرون مجاهل أفريقيا المظلمة بأقباس الحضارة الأوربية فى القرن العشرين ! . من أجل ذلك كله كانت اللغة الإنجليزية هى اللغة الرسمية فى دور الحكومة وهى لغة التدريس فى المدارس والكليات ، ومن أجل ذلك أيضاً كانت العناية بتدريس الأدب الإنجليزى والتاريخ الإنجليزى والقانون الإنجليزى تفوق كل عناية . إن كلية الخرطوم الجامعة التى تضم فى مختلف أقسامها مايزيد على الستين أستاذاً بريطانياً لا تجد فيها أكثر من أربعة أساتذة مصريين يقومون بتدريس الأدب العربى والتاريخ الإسلامى وحتى هؤلاء لايختارون إلا إذا توفرت فيهم صفات معينة كالمقدرة على تشكيك الطلاب فى عقائدهم(١) وزعزعة الثقة فى تراثهم الإسلامى المجيد وتشويه معالم التاريخ الإسلامى على نحو مايفعل المستشرقون . ولكن الحيوية الإسلامية الكامنة فى الأمة السودانية كانت أقوى من أن تستسلم لهذه الموجة الجارفة من الثقافات الاستعمارية فوقف الشباب الواعى فى جنوب الوادى وقفة المؤمن بنفسه المعتز بتراثه ليدحض مفتريات المستشرقين ويثور فى وجه الأساتذة الذين يسخرون أقلامهم وعقولهم وألسنتهم لخدمة الاستعمار الثقافى عن قصد أو عن غير قصد . أما الشيوخ فى جنوب الوادى فلم يكونوا فى يوم من الأيام مؤمنين بهذه المؤسسات التى تسمى مدارس وكليات لا لأنهم أعداء للعلم ولكن لاعتقادهم بأنها مؤسسات تزعزع اليقين فى نفوس أبنائهم ، وتزرع الشك فى عقولهم وتبعدهم عن حقيقة الدين ، وما كانوا ليرموا بأبنائهم إليها لولا ضغط العوز ، ووطأة الحاجة . تلك هى حقيقة المعركة بين الشعب السودانى المسلم وبين دولة الحكم الثنائى فى ميدان الفكر والخلق والاجتماع ، وإن أقل مايقال عنها أن الاستعمار فشل فشلا ذريعاً فى استعمار العقول وزعزعة العقيدة وإفساد الأخلاق فى جنوب الوادى ، ولئن كانت هناك فئة قليلة استجابت له ، فذلك لاينفى هذه الحقيقة . بل إن الوعى الإسلامى الجديد الذى أخذ يكتسح صفوف الشباب المثقف ليضعف الأمل يوما بعد يوم فى إمكان نصر يحوزه الاستعمار فى هذا المضمار . (يتبع)

(١) أدى هذا الأسلوب فى التدريس إلى نزاع عنيف فى العام الماضى بين طلبة الكلية وأحد هؤلاء الأساتذة فكان مثار اهتمام كبير فى الرأى العام السودانى .

فى أفق العالم الإسلامى

إيران :

لم يكن سهلا التكهن بحقيقة الأمور فى سياسة إيران ، فإن دسائس الإنجليز وميوعة الأمريكان أو خبثهم ، يجعلنا نشك فى روايات وكالات الأنباء ؛ وسفارات إيران للأسف لا تؤدى مهمتها كما ينبغى عليها ... على أن أهم ما اهتم له المسلمون فى كل مكان هو العلاقة بين الدكتور مصدق والسيد الكاشانى ، وخوفهم أن يكون قد أصابها شىء أو تأثر أحدهما بتيار من التيارات التى تغشى أرض الذهب الأسود من كل ناحية ، فمن قائل إنه تنازع النفوذ بين الرجلين ، ومن زاعم أنه أثر لتنازع النفوذ بين الشيوعية والأمريكانية ، ومن ذاهب إلى أنه لاشىء من كل ذلك وإن هو إلا « تكتيك » أريد به شىء متفق عليه ، ويستشهدون لذلك بالهدأة السريعة بعد الفورة العنيفة فى ظاهرها .

ونحن لانملك أسباب الجزم بأمر معين ، وكل ما نستطيعه أن نناشد الرجلين أن يتفقا على أمر ينقذ إيران من الأزمة الشديدة التى تأخذ بخناقها ، وسيقتضى ذلك أن يتحمل الشعب الإيرانى كثيراً من الصعاب ويصبر على كثير من الحرمان . وقد تنبأنا بذلك فى مطلع القضية الإيرانية فى « المسلمون » .

وأساس الكفاح الشعبى دائماً وحدة صفوفه ، وقادته هم النماذج المرموقة للأخلاق اللازمة لجمع الشمل وإحباط الفتن وإرهاب العدو .

* * *

وجاء تصريح الدكتور مصدق الأخير فى البرلمان قويا واضحاً ومليئاً بالأمل ، وكان رفضه للمقترحات البريطانية الأمريكية الأخيرة عادلا كل العدل ، فإن معنى قبول شرط التعويض المقترح هو أن موارد الزيت كلها لا تكاد تكفى إلا لتعويض الشركة التى كانت تنهب إيران فيما مضى . وأعلن السيد مصدق استعداد الحكومة الإيرانية للالتزام بقرار محكمة العدل الدولية الذى تراه إذا تقدمت الشركة البريطانية بطلب تعويض محدد . كما أعلن أن إيران ستحاول بيع زيتها إلى الخارج ، وأشار إلى الصفقة التى نقلتها السفينة ماريلا أخيراً مستشهداً بها على نجاح الجهود التى بذلت فى هذه السبيل . وأعرب عن اعتقاده بأن صفقات أخرى ستتم قريباً ، وبهذا سوف تتمكن الحكومة من تشغيل معامل تكرير عبدان تشغيلا كاملا . ثم قال إن الحكومة الإيرانية تقف على قدميها الآن بعد أن اجتازت الأزمة الاقتصادية ، وعلى الرغم من التكهنات القائلة بأن إيران لن تستطيع أن تحيا شهراً واحداً بدون موارد الزيت ، فإن المصانع قد استأنفت عملها وديون الحكومة قد سددت ومرتبات الموظفين قد صرفت فى حينها ، وقال إن باب المفاوضات مع انجلترا مفتوح على الأساس العادل الذى ذكرته فقط ... للوصول إلى تسوية ودية .

مؤتمر صحفى :

دعا المركز العام للاخوان المسلمين إلى مؤتمر صحفى بمناسبة عودة الأستاذ سعيد رمضان رئيس تحرير « المسلمون » من رحلته فى الأقطار الإسلامية التى زار فيها الباكستان وأندونيسيا والملايو والعراق ولبنان وشرق الأردن وفلسطين .

وقد ذكر الأستاذ سعيد فى مستهل حديثه أن الشعور السائد فى كل مكان من العالم هو أن الأزمة الحقيقية وراء الأزمات جميعاً — اجتماعية واقتصادية وسياسية — هى «أزمة أخلاق» وأنه لاسبيل إلى علاج هذه الأزمة إلا بالعودة إلى الدين : إلى حقائقه مبرأة من كل خرافة ، وإلى روحه الصافية المؤثرة مبرأة من الطقوس الفارغة والمظهر الكاذب ... وسبيل ذلك التربية السليمة ، وتنشئة جيل مسلم يؤمن بالإسلام ويتخلق بأخلاقه ويكافح فى سبيله ، ولاسبيل غير هذا إذا أراد المسلمون أن يبنوا بناء حقيقياً لمستقبلهم القريب أو البعيد ...

ثم قال مجيباً عن سؤال خاص بموقف الشرق الإسلامى من الحرب المقبلة : لقد لمست فى الشعوب الإسلامية كلها قلقاً من مشروع الدفاع عن الشرق الأوسط ، وأحسست فى جولتى هذا العام أن المسلمين فى الأقطار العربية بوجه خاص يحسون الخطر الذى يتهددهم إذا اندفع ساستهم إلى الارتباط بإحدى الكتلتين اللتين تتنازعان سيادة الدنيا الآن ، وأستطيع تلخيص هذا الشعور بأن المسلمين يرون فى كل مكان وجوب التفرقة بين مواجهة الفكرة الشيوعية التى يرون أنفسهم فى غنى عنها بنظامهم الإسلامى — إذا أحسن تطبيقه — وبين معاملة روسيا كدولة ، إذ ليس بينهم وبينها مايجعلهم يخشون اعتداء منها ، اللهم إلا أن يكون هذا الاعتداء بسبب الاحتلال الغربى ، هذا الاحتلال الذى يجب أن نتجه أولا إلى التحرر منه تحرراً عملياً لايعتمد على مجرد الوعود التى نقضت قبل أن يجف مدادها .

ثم قال : إن الشعوب الإسلامية لاتجد مبرراً أبداً يدفع بها إلى حلف يدعو الحرب إلى أرضها ، وهى حرب لاناقة لها فيها ولاجمل . والمسلمون مع ذلك يشعرون بأن واجبهم الدفاع عن أنفسهم ضد أى اعتداء ، وهم يرحبون بكل معونة من السلاح تقدم إليهم على هذا الأساس إذا كان المقصود به هو أن ندافع عن أنفسنا لاعن مصالح غيرنا .

وأجاب على سؤال خاص بعلاقة الإخوان المسلمين بالحركات الإسلامية فى عالمها : بأن هذه العلاقات قائمة متوطدة . ولايعنى الإخوان اختلاف أسماء هذه الحركات فإن الإخوان لم يعودوا جمعية ولكنهم أصبحوا فكرة ترمز إلى البعث الإسلامى ويتجاوب معها كل المؤمنين بنفس الفكرة الخالدة .

وهنا سأله مندوب « الأهرام » عن الحكمة فى اختيار كراتشى مقراً للمؤتمر الإسلامى فأجاب قائلا : إن الباكستان ألحت على مصر مرات فى العهود الماضية أن يعقد بالقاهرة المؤتمر الإسلامى الأول ، فتملصت مصر فى تلك العهود بمختلف المعاذير ، ثم قبلت عقد المؤتمر فى كراتشى ومقر المؤتمر هناك مؤقت . وليس لاختيار كراتشى مقرا مؤقتاً أى معنى آخر أكثر من أنه كان لابد من أن نبدأ ، وفى لائحة المؤتمر نص صريح يقول أن المؤتمر مطلق التصرف فى اختيار مقره وفروعه .

وإذا أردتم بعد ذلك إيضاحاً فيجب أن تذكروا أن رئيس المؤتمر الأول السيد شبير أحمد عثمانى شيخ الإسلام فى الباكستان قد افتتح هذا المؤتمر منذ ثلاثة أعوام بقراءة الفاتحة على روح الشهيد الإمام حسن البنا صاحب فكرة المؤتمر الإسلامى .

فعاد مندوب « الأهرام » يسأله : وما الذى استطاع المؤتمر تحقيقه من أهدافه حتى الآن ؟
فأجاب بأن المؤتمر مؤتمر شعوب هى أجزاء أمة واحدة مزقها الاستعمار وقطع أواصر الصلات العملية بينها فكان توثيق هذه الصلات بين العاملين فيها أول خطوة عملية يخطوها المؤتمر الإسلامى فى محاولة جمع شتات المسلمين .

وأضاف إلى ذلك قوله : ولهذا تسهر حركة الإخوان المسلمين على تعضيد فكرة المؤتمر منذ كان أملا وحتى يكون عملا فى القريب بإذن الله ، ونرجو أن يكون لانعقاد المؤتمر الإسلامى فى دورته الثانية خلال هذا العام فى القاهرة إن شاء الله أثر فى توجيه إمكانيات العالم الإسلامى

وتنظيم حركات البناء فيه ؟ فقد لمست فى جولتى بين البلاد التى زرتها هذا العام وعيا ورغبة شديدة فى عمل جاد يوجه حماس المسلمين ، وروح الأخوة بينهم وجهة عملية .

وضرب الأستاذ سعيد رمضان لهذا الوعى مثلا أن العالم الإسلامى قد استقبل حركة التحرير فى مصر باهتمام بالغ يرجو معه أن تستعيد مصر مكانتها العملية فى توجيه المسلمين وجمع شملهم وأن تنجح فى أن تكون بنهضتها الجديدة نموذجا إسلاميا يوقظ العملاق الممدود من الدار البيضاء حتى أندونيسيا والصين .

فى أندونسيا :

واستطرد فقال لقد أدهشنى حقا أن أسمع فى القرى النائية البعيدة أسئلة عن دقائق الوضع الحالى فى مصر ، فقد سألتنى طالبة فى كلية المعلمات الإسلامية بقرية « بادنج بانجنج » الواقعة على مسافة ثلاث ساعات بالطائرة من « جاكارتا » عن علاقة حركة التحرير المصرية بحركة الإخوان المسلمين ومدى التعاون بينهما على خلق الدستور المصرى الجديد .

ويدل هذا ولا شك على متابعة المسلمين أخبار إخوانهم فى كل مكان من الأرض متابعة لا تتمتع بها أمة أخرى .

وتحدث عن مدى نضوج الحركة الإسلامية فى أندونيسيا فقال إنها فى تقدم مضطرد تشير إليه قوة الأحزاب الإسلامية هناك حتى أصبح متوقعاً أن تفوز فى الإنتخابات القادمة بأغلبية كبيره فى البرلمان ولحزب ماشوى — الاسم المختصر لاسم مجلس شورى مسلمى أندونيسيا — أربعة وزراء حاليون منهم نائب رئيس الوزراء ووزير الداخلية .

ومما زادنى غبطة وارتياحا أننى دعوت إلى اجتماع لممثلى الأحزاب الإسلامية فحضر زعماؤها وأبدوا روحا طيبة واستعدادا كريما لتنظيم دخول الانتخابات القادمة جبهة واحدة .

حركة دار الاسلام :

وإلى جوار حركة الأحزاب الإسلامية الظاهرة فى أندونيسيا حركة أخرى اتخذت لها اسم « دار الإسلام » ينضوى تحت لوائها ألوف من المسلمين المسلحين المعسكرين بالجبال ويقود هذه الحركة السيد كارتو سويريو .

وقد حملت مجلة « تايم » الأمريكية على هذه الحركة واتهمتها بأنها حركة تخريب وقتل ونهب وتدمير . وبالغت فى الاتهام فقالت انه قد اندست فى هذه الحركة عناصر شيوعية وهولندية . وتدافع دار الإسلام عن نفسها بإن أعداء الإسلام هم الذين ينظمون الحوادث المخلة بالأمن وينسبونها إلى دار الإسلام

ونحن ندعو الله أن يقر الأمن فى أندونيسيا العزيزة ويهىء أسبابه ويجمع شمل أهلها على خير ما يحب ويرضى .

يطلبون اللغة العربية :

وختم الأستاذ سعيد رمضان حديثه عن رحلته بدعوة الأزهر إلى أداء واجبه فى نشر اللغة العربية ودعم القوى الروحية فى سائر البلاد الإسلامية ، فانها جميعا متعطشة إلى الاجتماع حول لواء القرآن ولغة القرآن .

ارتريا :

وقع أفراد الشعب الإرترى على عريضة رفعت إلى امبراطور الحبشة مطالبين بحقوقهم القانونية المغصوبة وقد جاء فيها :

١ — حيث أن الدستور الإريترى الذى ينص بأن جميع الشئون التى تقع فى اختصاص الحكومة الفيدرالية تكون داخلة فى نطاق اختصاصات حكومة إريتريا الداخلية ، وأن المواصلات الداخلية والتجارة الداخلية من اختصاصات الحكومة الإريترية . وحيث أنه بموجب قرار الأمم المتحدة والدستور الإريترى تعهد جميع الشئون التىلم تخول للحكومة الفيدرالية إلى حكومة إريتريا . على هذا قد بقى للحكومة الفيدرالية الدفاع والشئون الخارجية ونظام العملة والمالية والتجارة والمواصلات الخارجية فأخذا مما تقدم كنا نعتقد أن إريتريا تختص بالشئون الداخلية طبقاً لمواد الفصل الأول من الدستور الإرترى ويشترك ممثلوها فى المجلس الفيدرالى الإمبراطورى بعدد مساو للممثلين الأثيوبيين وقد اشتركوا فيه فعلا كما سيشتركون مناصفة فى الشعبة التنفيذية والقضائية وكما سيمثلون فى الشعبة التشريعية للحكومة الفيدرالية أيضاً بنسبة عدد السكان فى إريتريا وأثيوبيا طبقاً لنفس المادة الخامسة من قرار الأمم المتحدة . هذا مانص عليه الدستور والقرار ولكن العمل وقع على خلاف نصوصهما حيث لم تجد إريتريا اختصاصاتها الداخلية كاملة ولم تشترك فى الشئون الفيدرالية طبقاً للقانون حتى نشأ من ذلك شكاوى الإريتريين للمطالبة بحقوقهم القانونية وإن عدم المساواة بين الشعبين طبقاً للقانون يفتح فجوة للخلافات التى لا تعود عليهما بفائدة بل تعود بضرر بليغ .

لهذا نلتمس من جلالتكم النظر فى الخلافات المذكورة على ضوء قرار الأمم المتحدة ودستور إريتريا ثم التنفيذ السريع بعد ذلك فى الأمور الآتية :

(ا) تسليم جميع المواصلات الداخلية كلها إلى يد حكومة إريتريا وذلك يشمل السكك الحديدية والمطارات وطوابع البريد الداخلى والنقل والتليفونات والتلغرافات والجمارك .

(ب) تسليم جميع الشئون الداخلية بإريتريا كالملح والبيوت والبطاقات الشخصية لسكان إريتريا من أجانب وضرائبها وضريبة الصحة والتعليم والضرائب المأخوذة من إريتريا على جوازات المسافرين من إريتريا والقادمين إليها وضريبة وقوف البواخر فى ميناء مصوع وعصب .

(ج) اشتراك إرتريا فى شئون الدفاع ونظام العملة والمالية وفى جميع الشئون الخارجية للحكومة الفيدرالية وتختار حكومة إريتريا الموظفين فيما بعد بعد إصدار أمركم الكريم كما اختارت قبل ذلك فى المجلس الفيدرالى .

(د) جميع مسودات الإعلانات والقوانين الفيدرالية الجديدة التى أصدرتموها جلالتكم بوصفكم الرئيس الأعلى للفيدرالية نلتمس إصدار أمركم بتحويلها إلى حكومة إريتريا لإجراء الاستفتاء فيها من الشعب الإريترى أو من برلمانه طبقاً للأساليب الديمقراطية كما هو الحال فى القوانين الفيدرالية لدى دول العالم .

(ه) الشعب الإريترى يشعر بضائقة شديدة فى المعيشة وسبب ذلك يرجع إلى قلة العمل وزيادة التعريفة الجمركية التى أثقلت كاهل الشعب الإريترى وأخمدت الحركة التجارية .

هذه هى بعض النقط المهمة التى أحببنا إلفات نظركم إليها وأملنا عظيم أن يجد طلبنا هذا قبولا لدى جلالتكم .

***

ولنا عود إلى قضية إرتريا إلى عدد قادم إن شاء الله ، فإن قصتها مأساة دامية . . .

أخبار متفرقة

● استبشر المسلمون جميعهم خيراً بزيارة البعثة العسكرية المصرية والبعثة الصحافية للباكستان فإن توثيق الصلات بين مصر والباكستان أمر عظيم ، حرصت عليه الباكستان من أول نشأتها ولم تأل جهداً فى العمل له ، ولعله قد آن لمصر الرسمية أن تؤدى فى ذلك واجبها فى العهد الجديد ، أما « الشعب » فإنه يحمل للباكستان منذ قيامها أعز عواطف الحب والأمل .

● أكد المستر انتونى نتنج ، وكيل وزارة الخارجية البريطانية « أن مجموع طائرات المطاردة النفاثة التى قدمتها حكومة تشرشل لدول الشرق الأوسط حتى الآن لايزيد على ١٢ طائرة » .

● أذيع فى نيقوسيا أن العمل قد بدأ فى إنشاء معسكرات كبيرة جديدة فى جزيرة قبرص وقد خصص لها اعتماد مبدئى مقداره ستة ملايين من الجنيهات قد تزيد بعد ذلك ، والمفهوم أن هذه المعسكرات هى التى ستنتقل إليها القوات البريطانية فى منطقة قناة السويس بعد جلائها عن مصر .

● يقول المجلس البريطانى لتنشيط التجارة العالمية إن الصناعات الهندسية فى بريطانيا ستواجه حالة هبوط مالم تزد صادراتها إلى روسيا والصين وسائر الدول الشيوعية ، ولذلك يجب بحث حالة الأسواق فى تلك البلاد بحثاً جدياً لمعرفة البرامج الإنشائية والصناعية فيها .

● أعلن أن الفاتيكان أنشأت علاقات دبلوماسية مع سوريا فأصبح عدد الدول التى لها ممثلون دبلوماسيون فى الفاتيكان ٤٦ دولة .

● نظمت فى بومباى مظاهرة احتجاجاً على السماح بذبح الأبقار راح (ضحيتها) ٣ قتلى وأصيب ١١ بجراح .

● راجت بين الدوائر السياسية إشاعات قوية بأن الجنرال روبرتسون القائد الأعلى للقوات البريطانية فى الشرق الأوسط يزور العراق الآن لنقل هذه القيادة من فايد إلى العراق ، والمفهوم أنها ستنتقل إلى مدينة البصرة لأنها أقرب إلى ميدان القتال المحتمل فى إيران وتركيا والعراق من منطقة قناة السويس .

● كتبت صحيفة (الديلى هيرالد) البريطانية العمالية تقول : إن جلاء القوات البريطانية عن قناة السويس أمر لابد منه وإن المحافظين الذين يفكرون بعقلية الماضى يعتقدون أن أية رغبة يظهرها المستر إيدن وزير الخارجية لمواجهة الحقائق الحاضرة يجب أن تعتبر تدهوراً أو تأخراً وطنيا .

● أكد الخبراء الفنيون وجود بترول فى المنطقة المحيطة بقرية سحر اللبنانية ، وقد بوشر فى حفريات التفتيش للكشف عنه .

● وافق مجلس الوزراء المصرى على إصدار الاتفاق التجارى المؤقت بين مصر وحكومة الجمهورية الاندونيسية الموقع بالقاهرة فى ١٠ يونيو سنة ١٩٤٧ .

● علم المسئولون أن محادثة تليفونية تمت بين أحد التجار الأجانب فى مصر ومدير إحدى الشركات الإنكليزية فى لندن ، وكان الحديث بينهما حول بضائع معدة للتصدير من ميناء الإسكندرية إلى نابولى واتفقا على أن تقوم الشركة الإنكليزية بعد ذلك بتصديرها من ميناء نابولى إلى إسرائيل فصدرت الأوامر بمنع شحن هذه البضائع كما أخذ فى التحقيق مع التاجر الأجنبى .

● نفت قيادة الجيش الأمريكى فى ألمانيا أنها تعمل على إبعاد اليهود عن وظائفهم فى إدارة المخابرات السرية فى ألمانيا .

بسم الله الرحمن الرحيم

محتويات هذا العدد

مطابع دار الكتاب العربى بمصر